جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

وسائل النصر في سورة الأنفال

"دراسة دعوية"

الدكتور

محمد حامد محمد سعيد

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين – وزارة التعليم العالي بماليزيا
جامعة الإنسانية بقدح "دار الأمان"

مستلة من

حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الرابع والثلاثون، لعام ١٤٣٥- ١٤٣٦هـ/٢٠١٤ - ٢٠١٥م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠١٥/٦١٥٧

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذى مكن لدنيه، الحمد له الذى أعز المسلمين بفتوحات رسولهم، فكتب لرسالته البقاء والخلود إلى يوم الدين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده ملكوت السماوات والأرض بشرنا برسولنا محمد (ﷺ) على لسان ابن مريم (عليه السلام) فقال:**{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**(١).

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه فضله على جميع الأنبياء والرسل فكان لا يخاطبه إلا بقوله: يا أيها النبي، يا أيها الرسول، فاللهم صل وسلم وبارك على حبيبك ومصطفاك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً يا رب العالمين

أما بعد،،،،،،،،،،،،

فإن الدعوة إلى الله تعالى شرف ما بعده شرف، وتكريم من الله تعالى ما بعده تكريم، وتفضيل من الله تعالى لأهلها ما بعده تفضيل، هذا الشرف والتكريم والتفضيل ليس لكل المسلمين، وإنما لمن اختصه الله وميزه على غيره من إخوانه، ورفع قدره وأعلى شأنه، والدليل على ذلك قوله تعالى: **{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**(٢).

---

(١) سورة الصف ٦.

(٢) سورة فصلت٣٣.

ولما كان للدعاة إلى الله تعالى هذه الدرجة عند الله (ﷻ) وكانت الدعوة إلى الله تعالى هي هدفهم الأول والذى يحيون من أجله كان لزاماً عليهم معايشتهم للواقع المعاصر الذى يعيشون فيه، ومعايشة الواقع المعاصر للداعية من صميم دعوته التي ائتمنه الله تعالى عليها، والذى يعمل على تبلغها ليل نهار ليرضى بدعوته هذه مولاه (ﷻ).

ولعل أول ما يلفت أنظار الدعاة إلى الله تعالى خاصة والمسلمين عامة السؤال الذى يطرح نفسه ومضمونه لماذا هذه الانتكاسة التي يعيشها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها؟ أو لماذا ينتصر غير المسلمين وينهزم المسلمون في كافة جوانب الحياة اقتصادياً، وسياسياً، وعسكرياً، وثقافياً .....إلى غير ذلك ؟ فهذه التساؤلات لها صيغ متعددة وعبارات متشعبة وكلمات رنانة تهلع النفس حين تتلى عليها، وتنزعج الأُذن حين تسمعها، ولعل الإجابة على هذه التساؤلات تباينت فيها وجهات النظر بين من يقول إن الخطأ عند المسلمين أنفسهم فهم سبب الانهيار والتأخر، وبين من يقول إن السبب في هزائم المسلمين هو الإسلام نفسه لعدم قدرته على المعايشة المجتمعية، ومن قائل إن السبب في إلحاق الهزائم بالمسلمين هو عدم تطبيقهم لمنهج الإسلام الصحيح ..... إلى غير ذلك من الأسباب التي أدلى كل واحد بدلوه فيها بين مسلم متعصب لدينه، وبين جاهل لا يُحسن عرض دينه على الآخر، وبين ثالث لا هو إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.....الخ.

وبمراجعة للنفس وتأمل في كتاب ربنا (ﷻ) وبقراءة لبعض سوره وآياته، التي يقول فيها ربنا (ﷻ):{**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**}(١).

(١) سورة ص ٢٩.

أدركت السبب في الهزائم التي لحقت بالمسلمين في واقعنا المعاصر، وأدت إلى عدم انتصارهم على أعدائهم، فمن هنا جعلت عنوان بحثي هذا **(وسائل النصر في سورة الأنفال دراسة دعوية)**(١)، خاصة وأن سورة الأنفال سورة مدنية ونزلت في شأن غزوة بدر الكبرى.

وقد تحدث عن هذا المعنى الإمام ابن القيم فذكر أن كثيراً من الناس: (يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء مقهورين مغلوبين دائماً بخلاف من فارقهم إلى سُبل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو يجعله معلقاً بالمشيئة وإن لم يصرح بها، وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى ومن سوء الفهم في كتابه، والله سبحانه قد بين في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة قال تعالى: **{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ}**(٢)، وقال تعالى:**{وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}**(٣)، وقال تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}**(٤) وهذا كثير في القرآن)(٥). فالنصر قادم قادم إن شاء

---

(١) اقتصرت على وسائل النصر في الآيتين رقم ٤٥،٤٦ السابق ذكرهما، وإن كانت وسائل النصر في السورة أكثر من ذلك بكثير وذلك لعدم الإطالة في عرض البحث.

(٢) سورة غافر ٥١.

(٣) سورة المائدة ٥٦.

(٤) سورة المجادلة ٢٠،٢١.

(٥) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان للإمام/محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ١٨٣/٢، نشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م، تحقيق/ محمد حامد الفقي.

الله لا محالة إن لم يكن على أيدينا فعلى أيد أولادنا أو أحفادنا ..... المهم لابد من النصر بتوفيقه وإعانته (ﷻ).

وبناء على هذا فقد قسمت بحثي إلى مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة، – وأسال الله تعالى حسنها –.

أما المقدمة: فهي ما نحن بصددها.

وأذكر فيها أسباب اختياري لهذا الموضوع.

وأما التمهيد: فيتناول التعريف بمفردات البحث.

المبحث الأول: الثبات أمام العدو.

المبحث الثاني: ذكر الله (ﷻ).

المبحث الثالث: طاعة الله وطاعة رسوله الكريم (ﷺ).

المبحث الرابع: الاجتماع لا الاختلاف والتوحد لا التفرق.

المبحث الخامس: معية الله مع الصابرين.

ثم **الخاتمة** وبها أهم النتائج ثم **المراجع والفهارس**.

وهذه المباحث الخمسة من خلال الآيات التي معنا نلحظ أنها: (تضمنت الأمر بجهاد الأعداء، والإرشاد إلى الأسباب التي ينبغي لجيوش الأمة الإسلامية الأخذ بها، فمن أعظمها وأهمها أمران: الصبر، وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك، والثاني: التوكل على الله، والتضرع إليه، والإكثار من ذكره، فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بأهم أسباب الوحيدة للنصر والفلاح، فليستبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده، فيدخل في الأمر بالصبر والثبات تمرين النفوس على ذلك، فإنه من يتصبر يصبره الله، وتعلم الرمي والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان، فإن التعليم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر، ومن ذلك الحث على الشجاعة، والسعي في

أسبابها، والترغيب في فضائل الجهاد، وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة، وما في تضييعه من ضياع الدين والدنيا، واستيلاء الأعداء، والذل والدمار، فإن النفوس الأبية والهمم العلية لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذي هو أعلى الأخلاق وأنفعها)(١).

أسباب اختيار الموضوع:

لهذا الموضوع أسباب كثيرة، أذكر بعضاً منها:

أولاً: ما تعيشه الأمة الإسلامية من ضعف وهزيمة وانكسار، قد يؤدى بالبعض فى بعض الأحيان إلى التشكك في إسلامه – والعياذ بالله تعالى –، قائلاً الإسلام الدين العالمي الخاتم، وهو الدين الذى ارتضاه الله تعالى للبشرية، فلماذا هذا الضعف والذل والهزيمة لدى أتباعه؟ فأردت الكتابة في هذا الموضوع لعله يكون فاتحة خير على الأمة الإسلامية جميعها فتفيق من غفلتها وتعود إلى رشدها.

ثانياً: العمل على إظهار الوسائل التي ذكرها الله تعالى في كتابه لنصر المسلمين على أعدائهم، خاصة وأن الآيات الواردة في شأنها نزلت أثناء خوض المسلمين معركة بدر الكبرى.

ثالثاً: الوسائل الدعوية التي يعيش معها الداعية كثيرة وكثيرة، فأردت في هذا البحث معايشة بعض من هذه الوسائل لعلها تصل بنا في النهاية إلى ما وصلت إليه في عهد رسولنا الكريم (ﷺ) ألا وهو النصر المنشود.

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للإمام /أبى عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن حمد آل سعدي (ت ١٣٧٦هـ) ١/١١٠، نشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، (بتصرف).

رابعاً: الحديث عن عوامل النصر هو من باب التفاؤل الذى قال عنه سيدنا يعقوب (عليه السلام) لأولاده حينما أمرهم بالبحث عن أخيهم يوسف (عليه السلام): {**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**}(١) فاللهم اجعلنا أهلاً للتفاؤل يا رب العالمين اللهم آمين.

وبعد ذِكر بعض من أسباب اختيار الموضوع فيما مضى، نعيش في الصفحات القادمة مع التمهيد: وفيه " **التعريف بمفردات البحث**"، ومفردات بحثنا تتمثل في الكلمات التالية: الوسائل، النصر، سورة، الأنفال، دراسة دعوية هذه هي أهم مفردات بحثنا هذ، فنبدأ متوكلين على الله ومعتمدين عليه سائلين إياه التوفيق والسداد في الأقوال والأفعال، قائلين جميعاً اللهم آمين.

- "**الوسائل**" كلمة جمع مفردها وسيلة، وأصل المادة "و س ل" الواو والسين واللام: كلمتان متباينتان جداً، الأولى الرغبة والطلب، يقال وسل إذا رغب، و الواسل: الراغب إلى الله (عز وجل)، الوسيلة والواسلة: المنزلة عند الملك، والدرجة والقربة والوصلة، وقال الجوهري: الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل، وفي حديث الأذان "اللهم آت محمدا الوسيلة ... .. (٢)، قال ابن الأثير: هي في الأصل ما يُتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، والمراد به في

(١) سورة يوسف: ٨٧.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتابه الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه للإمام/محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ك/ الأذان، ب/ الدعاء عند النداء ١/١٢٦، نشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر.

الحديث القرب من الله – تعالى –، وقيل: هي الشفاعة يوم القيامة، وقيل: هي منزلة من منازل الجنة([1]).

فمن خلال ما سبق يمكن لنا أن نستنبط أن لفظة "الوسائل" تعنى الدرجة والقربة والطلب والمنزلة، وتعنى كذلك ما يتوصل به إلى الشيء، ولعل هذا هو مرادنا في بحثنا هذا، فدراسة هذا الوسائل توصل في النهاية إلى النصر المنشود –بإذن الله تعالى– الذى نرجوه جميعاً في حياتنا التي نعيش فيها.

- **"النصر"** أصل اللفظة نصر ومنه نصَره على عدوّه ينصُره ونصَره ينصُره نصراً([2])، النصر والنصرة العون (نصره) على عدوه نصراً ونصرة أيده وأعانه عليه، ومنه نجاه وخلصه فهو ناصر وهي ناصرة (ج) نصار ونصور وهو وهي نصير (ج) أنصار([3])، ومنه قوله تعالى في سورة النصر:

---

(١) معجم مقاييس اللغة للإمام/ أبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥ هـ) مادة (وسل) ١١٠/٦، نشر دار الجيل،١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، بيروت، لبنان، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، المصباح المنير للإمام/ أحمد بن محمد بن علي الفيومي مادة (و س ل) ٣٤٠/١،نشر: المكتبة العصرية، دراسة وتحقيق/ يوسف الشيخ محمد، تاج العروس من جواهر القاموس للإمام/ محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ٧٥/٣١، نشر دار الهداية، تحقيق مجموعة من المحققين.

(٢) لسان العرب للإمام/محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري مادة (نصر) ٢١٠/٥، نشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف المؤلف/محمد عبدالرؤوف المناوي (فصل الصاد)٧٠٠/١، نشر: دار الفكر المعاصر, دار الفكر، بيروت, دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق/ محمد رضوان الداية، المعجم الوسيط تأليف/ إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار مادة (نصر) ٩٢٥/٢، نشر: دار الدعوة، تحقيق/ مجمع اللغة العربية.

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(١).

فكلمة النصر تعنى الإعانة والنصرة والعون على الفوز على الأعداء، والظفر عليهم وهذا ولا شك غاية كل مسلم في حياته أن ينصره الله تعالى على عدوه.

• "**سورة**" كلمة سورة من الألفاظ التي لها معنى في اللغة وآخر في الاصطلاح، فمما جاء في تعريفها في اللغة: أن (السور حائط المدينة وجمعه أسوار وسيران، والسور أيضاً جمع سورة مثل بسرة وبسر وهي كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى والجمع سور، وهي كل ما علا وبها سُمي سور القرآن سوراً)(٢).

وأما تعريفها في **الاصطلاح**: ذكر الإمام الزركشي ما نصه: (قال الجعبري: حد السورة قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات فإن قيل: فما الحكمة في تقطيع القرآن سوراً؟ قلت: هي الحكمة في تقطيع السور آيات معدودات لكل آية حد ومطلع حتى تكون كل سورة بل كل آية فناً مستقلاً وقرآناً معتبراً، وفي تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة، وآية من آيات الله تعالى، وسُورت السور طوالاً وقصاراً وأوساطاً تنبيهاً على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة، ثم

---

(١) سورة النصر آية ١،٢،٣.

(٢) لسان العرب مادة (سور) ٣٨٤/٤، المخصص للإمام/ أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده ١٨٢/٥، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، الطبعة الأولى، تحقيق/ خليل إبراهم جفال، مختار الصحاح للإمام/ محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (ت٧٢١هـ) مادة (س و ر) ١/ ١٢٤، نشر مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، بيروت، تحقيق/ محمود خاطر.

ظهرت لذلك حكمة في التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى أسرارهم وغير ذلك، فإن قلت: فهلا كانت الكتب السالفة كذلك؟ قلت لوجهين: أحدهما أنها لم تكن معجزات من ناحية النظم والترتيب، والآخر أنها لم تُيسر للحفظ)([1]).

ويلفت الأستاذ/ النبهان النظر إلى فائدة تفصيل القرآن الكريم وتقطيعه إلى سور وآيات فينقل عن الإمام الزمخشري قوله: (الفوائد في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة، وبوب المصنفون في كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً، ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخره كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً وانتهى إلى رأس برية نفّس ذلك منه ونشطه للمسير، ومن ثم جُزئ القرآن أجزاء وأخماساً، ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة فيعظم عنده ما حفظه، ومنه حديث أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جُل فينا.....([2]) ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل، ومنها أن التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم إلى غير ذلك من الفوائد)([3]).

---

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام/ أبي عبد الله بدر الدين محمد الزركشي (ت٧٩٤هـ) ٢٦٣/١،٢٦٤، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، نشر: دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين للإمام/ أبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)٥٦/١، نشر: دار الفرقان، عمان الأردن، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ تحقيق: د/ شرف محمود القضاة.

(٣) المدخل إلى علوم القرآن الكريم للأستاذ/محمد فاروق النبهان ص١٣٥، نشر: دار عالم القرآن، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

إذا فالسورة تعنى مجموعة من الآيات لها بداية ونهاية أقلها ثلاث آيات، وفى الغالب الأعم تسمى بسم أشهر اسم فيها، أو أشهر واقعة فيها مثل سورة البقرة وذلك لورد قصة البقرة فيها، أو سورة المائدة لورد قصة مائدة بنى إسرائيل..... وهكذا.

& "**الأنفال**" أصل هذه المادة كلمة (نفل) وهى تعنى العطاء والزيادة ثم كان المراد بها هنا الغنائم، جاء في المعجم الوسيط (نفل) القائد الجند جعل لهم ما غنموا، (نفل) عن صاحبه دفع عنه، وفلاناً مبالغة في نفله وأعطاه زيادة على نصيبه الواجب له، (النفل) ما شُرع زيادة على الفريضة والواجب، (النفل) الغنيمة والهبة (ج) أنفال)([1])، ومنه سورة الأنفال – وهى محل حديثنا – وهى إحدى السور القرآنية وترتيبها في المصحف الشريف الثامنة، وعدد آياتها خمس وسبعون آية كما هو وارد في المصحف العثماني.

- "**دراسة دعوية**" إن المقصود بهذه اللفظة هو الدراسة الدعوية لكل من الداعي والمدعو، وبيان العوامل المشتركة والمنفصلة بينهما، ولذا وجب معايشة بعض الألفاظ المرتبطة بهذه الكلمة باعتبارها لفظة مركبة فمن ذلك:

الدعوة: بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية يبدو واضحاً أن أصل المادة – الدعوة – دعا فيقال: (دعا الرجل دَعْوا ودعاء ناداه والاسم الدعوة ..... وتداعى القوم: دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا ..... والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة, واحدهم داع, ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين أدخلت الهاء فيه للمبالغة، والنبي (ﷺ) داع إلى الله تعالى)([2]).

---

(١) مادة (نفل) ٩٤٢/٢.

(٢) لسان العرب مادة (دعا) ٣٦٧/٣, ٣٦٨.

ويستخلص مما سبق أن الألفاظ اللغوية المتعلقة بالدعوة لفظة "دعوة ودعاية وداعية" وذلك باعتبار أن الدعوة تعنى مطلق الطلب، والدعاية ترويج لفكرة أو مذهب، والداعية من يطلب غيره ليروج لفكرته لدى المطلوب وهو المدعو.

وأمّا عن تعريف الدعوة في الاصطلاح:

اختلف المؤلفون في علم الدعوة في التعريف الاصطلاحي بناء على نظرتهم إلى الدعوة ذاتها، هل هي قاصرة على الفكرة التي يدعو الداعي الناس إليها والأساليب والوسائل المستخدمة فقط، أم يدخل فيها سلوك والتزام الداعي بما يدعو إليه، ويدخل فيها ما وراءه من تربية وتزكية، ثم ما يعقبه من عمل بما يدعو إليه؟ فإن الدعوة من حيث هي دعوة لا تشمل إلا دعوة الناس إلى الإسلام بالأساليب والوسائل المأذون بها شرعاً فقط، مع الأخذ في عين الاعتبار أن سلوك الداعية والتزامه بالشرع، وتربية المدعوين على ذلك، وتزكية نفوسهم، وعمله بما يدعو إليه، كل ذلك من مستلزمات ومقتضيات الدعوة، وبناءا على ذلك فقد عُرفت الدعوة بعدة تعاريف منها:

ما ذكره صاحب الفتاوى في رده على سؤال وُجه إليه حيث سُئل عن قوله تعالى: {**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين**}(١) وهل الدعوة عامة تتعين على كل مسلم ومسلمة أم لا ؟ فكان رده أن الدعوة إلى الله تعالى تعنى: (الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر

(١) سورة يوسف ١٠٨.

خيره وشره، والدعوة إلى أن يَعبد العبد ربّه كأنه يراه)([1])، كما عُرفت كذلك بأنها: (برنامج كامل يضمّ في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليُبصروا الغاية من محياهم، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين)([2]).

وفي تعريف آخر للدعوة يُرى أنها عبارة عن: (السمو بالإنسان عن طريق دعوته للإسلام عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً، والرقي بالحضارة الإنسانية (الخلافة) عن طريق الدعوة للعلم والعمل والعمران)([3]).

ومن خلال تلك التعاريف سالفة الذكر أرى أنها في عمومها لم تخرج عن **معنيين الأول** منهما: تعريف الدعوة باعتبار حقيقة الإسلام كدين بما يتضمنه من عقيدة، وشريعة، وأخلاق. **أما المعنى الثاني:** فيعنى تعريف الدعوة باعتبار عملية نشر الدين الإسلامي وتبليغه للناس كافة .

ومما سبق يظهر جلياً مدى أصالة تلك اللفظة – الدعوة – وكثرة المعاني التي تدور حولها, فهي من بين الألفاظ التي تشتمل على العموم والشمول لكل حقول العلم، ومن المعاني المتعلقة بلفظة الدعوة والتي لها علاقة قوية بها لفظة الداعي والمدعو.

فالداعي: اسم فاعل، من دعا يدعو، وتأتي فيه الهاء أحياناً للمبالغة، فيقال عمن عرف بالدعوة (داعية)، والمقصود بهذا المصطلح في البحث هو القائم

---

(١) مجموع الفتاوى للإمام/ تقي الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ١٥/ ١٥٧ نشر دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ : ٢٠٠٥ م، تحقيق: أنور الباز عامر الجزار.

(٢) دراسات في الدعوة والدعاة للإمام العلامة /محمد الغزالي، ص ١٧ ط: حسان، القاهرة،١٩٨١م.

(٣) مدخل إلى الدعوة الإسلامية د/ محمد أبوزيد الفقي، ص٢٤ ط: مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا, الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ :٢٠٠١ م.

بالدعوة إلى الله (ﷻ)، كما في قوله سبحانه واصفاً سيدنا محمد (ﷺ): {**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**}(١).

أما المدعو فهو: اسم مفعول، من دعا يدعو، فهو مدعو، والمقصود به في هذا البحث هو الإنسان الذي توجه إليه الدعوة، المراد صلاحه في دينه أو دنياه، وهو عام يشمل المسلم وغير المسلم، كما في قوله تعالى: {**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**}(٢).

فمن خلال ما سبق يُستنبط أن الدراسة الدعوية يُقصد بها ما يقوم به الداعي تجاه تبليغ دعوته لمدعويه وذلك من خلال الوسائل والأساليب الدعوية المشروعة، وفق الضوابط المدروسة في علم الدعوة، وهذا ما أحاول أن أثبته في بحثي هذا من دراسة لوسائل النصر كما ذُكرت في سورة الأنفال، وهذه الدراسة ليست دراسة تفسيرية ولا دراسة فقهية وإنما دراسة دعوية – بإذن من الله تعالى سائلاً إياه الإعانة والتوفيق–.

المبحث الأول
"الثبات أمام العدو"

(١) سورة الأحزاب ٤٦.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

لو تأملنا سورة الأنفال ومعناها الحقيقي لوجدنا أنها تعنى الغنائم، ولاشك أن هذه الغنائم كانت منحة من الله تعالى للرسول الكريم (ﷺ) وأصحابه الكرام، وهذا العمل الشاق الذى قام به الرسول (ﷺ) وأصحابه تم من خلال عدة وسائل وطرق وضحها ربنا (ﷻ) لرسوله الكريم من خلال قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} ونلاحظ في هاتين الآيتين عدة أمور منها:

أولاً: هذه الآيات جاءت بعد آيات تعرض تنظيم موقع بدر بالنسبة للمسلمين وموقفهم تجاه المشركين.

ثانياً: هذه الآيات وردت قبل انتهاء المعركة بدليل أن الحديث عن الأسرى وحكمهم جاء بعدها في الترتيب المصحفي.

ثالثاً: من خلال قراءتي للآيات أستطيع القول بأن الله تعالى يريد أن يلفت نظر رسوله الكريم (ﷺ) وأصحابه إلى أنكم إن أردتم النصر على الأعداء فما عليكم إلا أن تأخذوا بهذه الوسائل فهي سبيلكم إلى النصر، ودليل ذلك هو ورود هذه الآيات في الترتيب المصحفي في وسط الأحداث التي تتحدث عن يوم بدر وما كان فيه.

فالوسيلة الأولى من وسائل النصر على الأعداء – بالنسبة لهذه الدراسة – هي الثبات أمام العدو.

إن كلمة الثبات من الكلمات التي لها ثقلها في اللغة العربية فيكفى في ذلك أن لها أوتاداً ثابتة في لغتنا، فلها في اللغة معاني كثيرة، وأذكر ما نحن في حاجة إليه في بحثنا، فأصلها "ثبت" والثبات: مصدر ثبت ويعنى الاستقرار وعدم الزوال،

ومنه: الثبات في المعركة أي: عدم الفرار منها، ثبت الأمر: صح، والرجل في مقامه: لم يبرح، والثبات، جمع ثبت وثبيت: وهو الشجاع الوقور([1]).

أما في الاصطلاح: فإن لفظة الثبات تعنى: الاستقرار والثبات سواء كان هذا الاستقرار حقيقياً أم معنوياً([2]) حيث أن: (اثبت) أمر من الثبات وهو الاستقرار([3])، والثَّبَتُ: بتحريك الموحدة الثبات والحجة([4])، ولفظة ثبت هنا يراد بها الثبت في علوم الحديث ذاكم العلم المعروف لدى أهله والمحبين له، ولذا ذكرت أنه يراد بها الاستقرار في أرض المعركة، ويراد بها كذلك الاستقرار المعنوي النفسي المعيشي، وكذلك يراد بها الرجل الثبت في علوم الحديث.

فلفظة الثبات من الألفاظ التي لها أكثر من معنى، وكل يقف على المعنى الذى يريده، وما أريده في بحثى هذا هو الثبات والاستقرار في أرض المعركة وعدم

---

(١) معجم لغة الفقهاء اد/ محمد رواس قلعه جي د/حامد صادق ١٨٦/١، طبعة دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، إكمال الأعلام بتثليث الكلام للإمام/ محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني (ت ٦٧٢هـ) ٧٨/١، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، تحقيق /سعد بن حمدان الغامدي.

(٢) أقصد بالحقيقي أرض المعركة، والمعنوي النفسي.

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام/ أبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت١٣٥٣هـ) ١٢٩/١٠، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام/ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ٣٤٩/٣، نشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الفرار خوفاً من العدو، وكذلك الثبات والاستقرار النفسي والمعنوي للجنود في المعارك وهكذا.

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنه قد حوى هذه اللفظة في كثير من سوره وآياته(١)، فنجده تارة يستعملها بصيغة الأمر – الآية محل حديثنا –:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا**} فلفظة اثبتوا جاءت هنا بصيغة فعل الأمر، وتارة ثانية نجدها بصيغة المضارع في سياق الحديث عن المؤمنين جميعاً وذلك حينما ينصر المؤمنون دين الله في قلوبهم وعلى أرضه في قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**}(٢)، وكذلك قوله تعالى: {**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**}(٣)، وفى موطن ثالث نرى توجهه لفظ التثبيت لقلب الرسول الكريم (ﷺ) وذلك أثناء الرد على دعوى الكفار بنزول القرآن عليه دفعة واحدة، فعلل الله (ﷻ) تنزيل القرآن مفرقاً من أجل تثبيت قلبه (ﷺ)، وفى هذا الشأن ورد قول الله تبارك وتعالى: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**}(٤)، وفى نفس هذا السياق وردت آية سورة هود برقم ١٢٠فى قوله (ﷻ): {**وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**}، وفى موطن رابع جاء

---

(١) مادة (ثبت) ذكرت في القرآن بجميع مشتقاتها ما يقرب من عشر مواضع. يراجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ/محمد فؤاد عبد الباقي١٥٨،١٥٩، طبعة مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي دمشق.

(٢) سورة محمد ٧.

(٣) سورة إبراهيم ٢٧.

(٤) سورة الفرقان ٣٢.

طلب المؤمنين الثبات من الله تعالى على سبيل الدعاء في كل شؤون الحياة، وخاصة في مواجهة الأعداء فمن ذلك قوله تعالى:{**وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**}(١)، وفي سورة آل عمران نفس المعنى من خلال قوله (ﷻ): { **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**}(٢).

إن الثبات في الحياة على الحق والمبادئ التي غرسها الإسلام في قلوبنا هو مبدأ أساسي لا قيمة للحياة بدونه، هذا في الحياة عامة فما بالك بلحظات الجهاد وإعلاء كلمة الله في أرضه وأمام عدوه، فهذا ما ربى القرآن الكريم عليه أتباعه وأنصاره، من أجل هذا فليس بغريب ولا بعجيب أن نرى الله (ﷻ) جعل الثبات أمام العدو من أهم وسائل النصر على الأعداء، فالرجل لا تظهر شجاعته وقوته إلا في الشدائد وأشدها حين اللقاء والمواجهة مع الأعداء.

وفى تعليق على قوله تعالى:{**إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا**} نرى أن المسلمين قد شهدوا في موقعة بدر (أمداد السّماء تتنزل عليهم، وتضع بين أيديهم هذا النصر المبين، الذي كان مفتتح انتصاراتهم التي ستجيء بعد هذا، فيما يدور بينهم وبين المشركين والكافرين من قتال، ولئلا يغلب على المسلمين هذا الشعور الذي استولى عليهم يوم بدر، من عون الله لهم، وإمدادهم بالملائكة تقاتل معهم – لئلا يغلب هذا الشعور عليهم، ويسلمهم إلى التواكل والثقة بضمان النصر من غير إعداد وجهاد وبلاء – فقد أراهم الله تعالى الطريق الذي يأخذونه لتحقيق النصر الذي ينشدونه، ورسم لهم الدستور الذي يستقيمون عليه ليكون لهم الغلب الذي

(١) سورة البقرة ٢٥٠.

(٢) ١٤٧.

يرجونه، فالثبات لعدوّ والتصميم على لقائه في عزم وإصرار، دون أن يقع في النفس أي هاجس يهجس بها للفرار، أو التراجع، أو أخذ الجانب اللّين من مواقف القتال هو السلاح العامل بما لا تعمله كثرة العدد والعدة، لكسب المعركة، وتحقيق النصر)(١).

وكذلك يريد الله تعالى الثبات: (ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال؛ لأن الحرب تقتضي أولاً إعداداً، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة، وقوله تعالى: **{إِذَا لَقِيتُمْ}** أي أن المسألة قد وصلت إلى المواجهة مع الكفار ويقول الحق تبارك وتعالى: **{فَاثْبُتُوا}** والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة، لأن الإنسان إذا كان ثابتاً في القتال، فالعدو يخشاه ويهابه، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص، وهذا ما يُجرئ الكفار عليكم، وما دمتم قد جئتم إلى القتال، فلا بد أن يشهد الأعداء شجاعتكم؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم، ولذلك لا بد من التدريب على الثبات والقتال، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب؛ بالتدريب القوي والتخطيط الدقيق، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكبائر، والحق (ﷻ) يقول: **{ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}**، **{يُوَلِّهِمْ} أي يعطهم، و{دُبُرَهُ}** أي ظهره، وهذا تقبيح لعملية الفرار)(٢).

وفى سنة الرسول الكريم (ﷺ) قسطاً من الأحاديث الواردة في هذا الشأن مما يقوي ويثبت أركان عنصرنا الأول ألا وهو "الثبات أمام العدو" فمما ورد في ذلك

---

(١) التفسير القرآني للقرآن للأستاذ/ عبد الكريم الخطيب ٦٢٦/٥، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) خواطر الشعراوي للإمام/ محمد متولي الشعراوي ٤٧١٩/٨، نشر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

على سبيل الدعاء من نبينا محمد (ﷺ) من سؤال الله تبارك وتعالى أن يثبت قلبه على الإيمان: فقد روى الإمام الترمذي بسنده عن أنس قال: كان رسول الله (ﷺ) يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء)(١).

ومعنى "ثبت قلبي على دينك" أي: (اجعله ثابتاً على دينك غير مائل عن الدين القويم، والصراط المستقيم، والخلق العظيم)(٢)، وكان من دعائه (ﷺ) أيضاً الذي كان يعلمه للصحابة أن يقولوه دبر كل صلاة ما ثبت من قوله: (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب) (٣)، وفى تعليق للإمام/ المباركفوري على هذا الدعاء نراه يقول: (أي الدوام على الدين ولزوم الاستقامة عليه، وأسألك عزيمة الرشد هي الجد في الأمر حيث ينجز كل ما هو رشد من أموره والرُشد – بضم الراء المهملة وإسكان الشين المعجمة هو الصلاح والفلاح والصواب –، وفي رواية لأحمد أسألك الثبات في الأمر والعزيمة

(١) سنن الترمذي للإمام/ محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ) ك/أبواب القدر، ب/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ١٦/٤، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، تحقيق/ بشار عواد معروف، قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للإمام/ علي بن محمد الهروي القاري (ت١٠١٤هـ) ١٧٨/١، نشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل للإمام/ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) ٣٣٨/٢٨، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي.

على الرشد أي عقد القلب على إمضاء الأمر، وأسألك شكر نعمتك أي التوفق لشكر إنعامك وحسن عبادتك أي إيقاعها على الوجه الحسن المرضي، وأسألك لساناً صادقاً أي محفوظاً من الكذب وقلباً سليماً أي عن عقائد فاسدة وعن الشهوات، وأعوذ بك من شر ما تعلم أي ما تعلمه أنت ولا أعمله أنا، وأستغفرك مما تعلم مني من تفريط إنك أنت علام الغيوب أي الأشياء الخفية التي لا ينفذ فيها ابتداء إلا علم اللطيف الخبير)(١).

فهكذا كان طلب رسول الله (ﷺ) من ربه (ﷻ) أن يجعله ثابتاً على الدين القويم، غير مائل عن الحق والعدل، وذلك لكون الثبات على الحق أساس حياة الإنسان، فإذا كان هذا طلب رسولنا (ﷺ) فما بالنا نحن الفقراء إلى الله (ﷻ).

وعن الثبات وأهميته للمؤمن وأنه أول خطوة من خطوات النصر في الحياة على صفة العموم وعلى الأعداء على صفة الخصوص أسطر هنا ما ذكره صاحب الظلال: (فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر، فأثبت الفريقين أغلبهما، وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون، وأنه يألم كما يتألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار، وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها)(٢).

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٢٤٩/٩.

(٢) في ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب ١٥٢٨/٣، نشر: دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة: السابعة عشر، ١٤١٢هـ.

ومن خلال ما سبق من آيات وأحاديث يمكن لنا أن نستنبط منها أن هناك ثباتاً على الدين والعقيدة الصحيحة، وكذلك ثباتاً في الأقوال عموماً وعند النطق بالحق خصوصاً، وكذلك ثباتاً عند لقاء العدو، وثباتاً عند الفتن، حيث إن حياة الإنسان لا تسير على وتيرة واحدة ففي لحظات الضعف والانكسار يلزم الثبات على الطريق القويم الذى ارتضاه الله لنا ووضح معالمه رسول الله (ﷺ) وهكذا تظهر مواقف الثبات للإنسان في حياته.

وبنظرة تأملية دعوية عن الثبات نجد أن الثبات على المبادئ من أهم أخلاق الدعاة إلى الله، وهو الخلق الذي يجذب قلوب المدعوين إلى اتباعهم وسلوك سبيلهم واتباع طريقهم..... ومعنى ذلك أن يلتزم الداعية بالمبادئ والمنهج الذى يدعو إليه، فلا ينبغي أن يخالف الناس إلى ما ينهاهم عنه في قليل أو في كثير، بل يجب أن يكون أكثر الناس التزاماً بدعوته، وثباتاً عند الفتن والشدائد، وعند مواطن الابتلاءات والشهوات خصوصاً.

فليس من المعقول هنا أن يبتعد القائد ويترك أرض المعركة ويترك جنوده بلا قيادة وتوجيه، فهذا القائد الداعية لا يستطيع أن يؤثر في مدعويه وهم جنوده لأنه لم يثبت أمام العدو فكيف يطلب الثبات من الجنود وقد تخلى عنهم في أحلك الظروف الصعبة؟.

وقد ضرب لنا الدعاة السابقون أروع الأمثال في الثبات أمام الأعداء وذلك لتكون كلمة الله هي العليا لأن الداعية بثباته أمام عدوه في موقفه هذا تبليغ لدعوة الإسلام، وإعلاء لراية الإسلام، فمما ورد في ذلك في ترجمة سيدنا عبدالله بن حذافة السهمي عن سيدنا عبدالله بن عباس قال: (أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي صاحب النبي (ﷺ)، فقال له قيصر عظيم الروم: تنصر وإلا ألقيتك في البقرة من نحاس، قال: ما أفعل، فدعا بالبقرة النحاس فملئت زيتاً وغُليت ودعا برجل من أسارى المسلمين، فعرض عليه النصرانية فأبى فألقاه في البقرة فإذا

عظامه تلوح فقال لعبد الله: تنصر وإلا ألقيتك، فقال: ما أفعل، فأمر به أن يُلقى في البقرة فكتفوه فبكى، فقالوا: قد جزع قد بكى، قال: ردوه، قال له: لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حين ليس لي إلا نفس واحدة يُفعل بها هذا في الله، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة في، ثم تسلط علي فتفعل بي هذا، قال: فأُعجب منه وأحب أن يُطلقه، قال: قبل رأسي وأُطلقك قال: ما أفعل، قال: تنصر وأُزوجك ابنتي وأُقاسمك ملكي قال: ما أفعل، قال: قبل رأسي وأطلقك، وأطلق معك ثمانين من المسلمين، قال: أما هذه فنعم، فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه ثمانين من المسلمين، فلما قدموا على عمر بن الخطاب، قام إليه عمر فقبل رأسه، قال: فكان أصحاب رسول الله (ﷺ) يمازحون عبد الله فيقولون: قبلت رأس علج(١)، فيقول لهم: أطلق الله بتلك القُبلة ثمانين من المسلمين)(٢). هذا هو الثبات الحقيقي أمام الأعداء، الثبات الذى أتى أُكله إطلاق ثمانين من المسلمين بسبب ثبات سيدنا عبدالله أمام عظيم الروم قيصر، فلهذا الثبات أثره في حياة الداعي والمدعو، الداعي حينما يكون ثابتاً في دعوته متقناً وحاذقاً لها ثابتاً في أدائها عالماً بكيفية إعدادها موقناً بأن دوره في الحياة هو تبليغ دعوة ربه (ﷻ) في أرجاء المعمورة، المدعو حينما يكون واثقاً بدعوة قائده الداعي، حينما يكون المدعو على علم ويقين بأن قائده الداعي على قدم ثابت في دعوته،

(١) علج: العلج بالكسر: العير الوحشي إذا سمن وقوي، والعلج الحمار مطلقاً، ويقال: هو حمار الوحش السمين القوي لاستعلاج خلقه وغلظه، والعلج: الرجل من كفار العجم، والقوي الضخم منهم. ينظر تاج العروس من جواهر القاموس مادة (علج) ١٠٨/٦.

(٢) معرفة الصحابة للإمام/ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)١٦١٥/٣، نشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق/عادل بن يوسف العزازي، أُسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام/ عز الدين بن الأثير (ت٦٣٠هـ)٢١٤/٣، نشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، بيروت، لبنان، تحقيق/ عادل أحمد الرفاعي.

هنا لابد من المدعو من التأثر بالداعي وذلك لكون مواقفه كلها تدل على ثباته في دعوته.

والثبات في الدعوة إلى الله تعالى هو الذى أدى برسول الله (ﷺ) إلى النجاح الدعوي الذى حققه بتوفيق وإعانة من الله تعالى، وذلك من خلال رده على عمه أبى طالب حينما قدم إليه طالباً منه أن يتخلى عن دعوته حتى لا يتحمل هو وابن أخيه فوق طاقته، فكان رد الرسول الكريم (ﷺ): (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله (ﷺ) أي حصلت له العبرة التي هي دمع العين فبكى ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه فقال اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أُسلمك لشيء أبدا) (١).

من أجل ما سبق كله نرى الله تبارك وتعالى يجعل الوسيلة الأولى من وسائل النصر على الأعداء إنما هي الثبات أمام العدو، هذا في الجانب الإيجابي، وفي المقابل نري الجانب السلبي من الموبقات حيث رُوي عن أبي هريرة، عن النبي (ﷺ)، قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)(٢).

وفي الحديث دليل على أن: (هذه السبع المذكورة من كبائر الذنوب، والمقصود من إيراد الحديث ههنا قوله فيه: "والتولي يوم الزحف" فإن ذلك يدل

(١) دلائل النبوة للإمام/ إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني ص١٩٧، نشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق/ محمد محمد الحداد، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون للإمام/علي بن برهان الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ)٤٦٢/١، نشر دار المعرفة،١٤٠٠هـ، بيروت.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الحدود، ب/ رمي المحصنات ١٧٥/٨، رقم (٦٨٥٧).

على أن الفرار من الكبائر المحرمة، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الفرار من موجبات الفسق)([1]).

فالتولي يوم الزحف والفرار من أرض المعركة هو من الكبائر كما ذكر الإمام الشوكاني، وذلك لأن الأثر المرتب على هذا الفرار قد يؤدى إلى تدمير وتحطيم أمة بأسرها، فلا عجب بعد ذلك أن يجعل الله تبارك وتعالى الوسيلة الأولى من وسائل النصر إنما هي الثبات أمام العدو، وبعد معايشتنا للثبات أمام العدو نعيش مع الوسيلة الثانية وذلك من خلال المبحث الثاني ألا وهو:

(١) نيل الأوطار للإمام/ محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ) ٢٩٧/٧، نشر: دار الحديث، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، تحقيق/ عصام الدين الصبابطي.

المبحث الثاني

"ذكر الله (ﷻ)"

يقول الله تبارك وتعالى فيما نحن بصدده {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**} نلحظ من خلال الآية سالفة الذكر أن القرآن الكريم يشير إلى أن الوسيلة الثانية من وسائل النصر على الأعداء إنما هي "ذكر الله تعالى" وليس مجرد الذكر وإنما الذكر الكثير هو المطلوب وذلك بنص الآية المباركة.

إن ذكر الله تعالى يقرب قلب العبد من خالقه، ويبعد عن صاحبه وساوس الشيطان، ويجعل العبد في معية الله تعالى، ومن كان مع الله كان معه كل شيء حتى لو لم تكن معه الدنيا كلها ووقفت في وجهه، ومن لم يكن مع الله فلا شيء معه أبداً حتى لو وقفت الدنيا كلها معه، فالمعية الحقيقية مفتقدة وهى معية الله تعالى، وأساس هذه المعية ذكر الله تعالى.

وبتقليب لبعض أوراق الكتاب العزيز نرى أن هذه اللفظة "ذكر" لها أصل أصيل في صفحات القرآن الكريم، فقد استعملها بجميع مشتقاتها اللغوية(١) في كل منحى من مناحي الحياة، ففي ساحة المساواة بين الرجل والمرأة في مجال الأعمال الصالحة نرى القرآن يساوى بينهما فيقول تعالى: **{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}**(٢)، ونلاحظ في

---

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن حيث وردت لفظة (ذكر) ما يقرب من ٢٦٨ تقريباً.
(٢) سورة آل عمران ١٩٥.

هذه الاستجابة والمساواة من الله تعالى للذكر والأنثى أنها جاءت بعد ذكر الله (ﷻ) في الآيات السابقة عليها والتي يقول فيها رب العالمين: **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}**(١)، وكذلك في مجال الجزاء الأخروي يجعل الله تبارك وتعالى المصير واحداً لمن يدخل الجنة من الرجال والنساء من الذاكرين والذاكرات، ففي سورة الأحزاب قوله:{..... **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}**(٢)، فالقرآن يقرر بأن المغفرة والأجر العظيم لأصحاب الصفات في الآية ومنهم الذاكرين والذاكرات لله تعالى من الرجال والنساء.

ثم تكون الطمأنينة الداخلية والراحة القلبية والسعادة النفسية بذكر الله تعالى من خلال قوله: {**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} (٣).

ومما ينبغي معايشته في هذه الآية المباركة أنها ترسم (صورة شفيفة للقلوب المؤمنة في جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام "**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ**" تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة، "أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" ذلك

(١) سورة آل عمران ١٩١.
(٢) سورة الأحزاب ٣٥.
(٣) سورة الرعد ٢٨.

الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله يعرفونها، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويُحس أنه في هذا الوجود ليس مفرداً بلا أنيس فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه، وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يُحرمون طمأنينة الأنس إلى الله، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود، ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين، وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله، مطمئناً إلى حماه، مهما أُوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله "أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" هؤلاء المنيبون إلى الله، المطمئنون بذكر الله، يحسن الله مآبهم عنده، كما أحسنوا الإنابة إليه وكما أحسنوا العمل في الحياة) (١).

ونلحظ كذلك على هذه الآية أنها: (افتتحت جملة ألا بذكر الله بحرف التنبيه اهتماماً بمضمونها وإغراء بوعيه، وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف القلوب من التعميم، وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٦٠.

في القرآن لتطمئن قلوبهم، كأنه يقول: إذا علمتم راحة بال المؤمنين فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم؟ فإن تلك في متناولكم لأن ذكر الله بمسامعكم) (١).

ونظراً لأن الذكر صفة للمؤمن وسمة للإيمان، جاءت هذه النداءات في القرآن الكريم {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**}، {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ**} ذلك لأن الذكر أعظم سلاح يرفع من معنوية المجاهد عندما يشتد البأس، وتحمر الحُدق، وكما أن الذكر سلاح فعال في ميادين القتال هو أيضاً سلاح مؤثر في معترك الحياة، يقول تعالى:{**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}، وفي المواقف الصعبة ترى في الذكر تثبيتاً للذاكرين، وبه وصى الله موسى وهارون وهما ذاهبان لمواجهة فرعون حيث قال الله تعالى لهما رغم كفره:{**فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**} فذكر الله تعالى له تجليات وروحانيات لا يدركها إلا من عايشها قولاً وفعلاً، وما أعظم كون الذكر الحقيقي طمأنة للقلوب، وراحة للأبدان، وعاملاً من عوامل النصر على النفس والشيطان والأعداء.

وبنظرة سريعة عن حديث السنة المطهرة عن الذكر والذاكرين نرى أن من بين ما جاء فيها أن رياض الجنة ممثل في حِلق الذكر والذاكرين فمن ذلك ما ثبت عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنه قال: خرج علينا النبي (ﷺ) فقال: يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله، وذكِروه أنفسكم من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف

(١) التحرير والتنوير للإمام/محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ٣٩٣هـ)١٣/١٣٨، نشر: الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤هـ.

منزلة الله عنده، فإن الله يُنزل العبد منه حيث أنزله من نفسه)([1])، إذاً فرياض الجنة ممثل في حِلق الذكر والتي فيها قُرب من الله تعالى، وإذا كان العبد قريباً من الله تعالى فما الذى يخاف منه العبد فالمعية الإلهية معه ليل نهار وهذا ما يرجوه العاقل منا.

وهاك حديث آخر دلالته أن الذاكر لله تعالى في ظل عرش الرحمن يوم القيامة، وليس مجرد الذكر فقط هو المطلوب وإنما إفاضة العيون بالحزن والدموع فهي الدالة على الإخلاص لله تعالى حقيقة وليس على سبيل التمثيل كما نرى على شاشات التلفاز في واقعنا المعاصر.

فقد ثبت عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال: "سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) ([2])، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على مكانة الذكر وقدر الذاكرين عند الله (ﷻ)، وهذه غاية المسلم في حياته الدنيوية.

فالله تعالى لم يجعل الذكر مجرد كلمات تقال بل لابد لهذه الكلمات من التأثير الفعلي على الإنسان المسلم الذى ظهرت عليه ثمرات الإسلام، وحينما تبدو هذه الثمرات ظاهرة جلية فإن الذاكر لله تعالى يستطيع أن يصمد في أي موقف

---

(١) المرجع السابق١٣/١٣٨.

(٢) أخرجه البخاري ك/ الأذان، ب/ من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ١/١٣٣.

من المواقف حتى لو أدى هذا الصمود لإزهاق روحه أمام عدوه – وهو محل حديثنا –.

ويذكر صاحب الإحياء عن ثابت البناني قوله: (إني أعلم متى يذكرني ربي (ﷻ) ففزعوا منه وقالوا :كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني)(١).

ومن الناس من يقتل نفسه دون علمه وإدراكه بذلك، وذلك من خلال عدم معايشته لذكر الله تعالى قلباً وقالباً، قولاً وفعلاً، فالله تعالى يقول:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**}(٢)، ويُعلق الفضيل بن عياض على هذه الآية فيقول: (لا تُغفلوها عن ذكر الله فإن من أغفلها عن ذكر الله تبارك وتعالى فقد قتلها)(٣) ، فهكذا نرى البعض منا يقتل نفسه دون علم وشعور وذلك ببعده عن ذكر مولاه (ﷻ).

وقد ربط الإمام الشعراوي بين الثبات وبين ذكر الله تعالى في ربط ما أروعه فذكر أن الحق (ﷻ) حين يقول:({**فَاثْبُتُوا**} لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة في القتال، أياً كانت الفئة التي يواجهها المؤمنون كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد، وهنا طلب الحق الثبات ليعلم المؤمنون يقيناً؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذي يجاهدون من أجله، ولذلك يقول الحق (ﷻ): {**وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا**}، أي تذكروا

(١) إحياء علوم الدين للإمام/ محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ٢٩٤/١، نشر: دار المعرفة، بيروت.

(٢) سورة النساء ٢٩.

(٣) المجالسة وجواهر العلم للإمام/ أبى بكر أحمد بن مروان بن محمد القاضي المالكي ٢٤/١، نشر: دار ابن حزم، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

وأنتم تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتي بالنصر، فإن خالق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتي بالنصر، وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع في كونه الأسباب، فإذا استنفدنا أسبابنا، اتجهنا إلى خالق الأسباب، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خانته الأسباب ينتحر أو ينهار تماماً أو يصاب بالجنون، ولكن المؤمن يقول: إذا خانتني الأسباب فمعي رب الأسباب وخالقها، ويأوي إلى ركن شديد)(١).

ثم يواصل فضيلته قوله: (وذِكر الحق كلمة {كَثِيراً} هنا يعني أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد (ﷻ) هنا أن يكون ذكر الله كثيراً، ليوالي الله نصر المؤمن على عدوه)(٢).

ويضيف الشيخ رشيد رضا تعليقه على ذكر الله تعالى فيقول: (واذكروا الله كثيراً أي: وأكثروا من ذكر الله في أثناء القتال وتضاعيفه، اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته، ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبع سننهم بنصر دينه، وإقامة سننه، وبذكر نهيه لكم عن اليأس مهما اشتد البأس، وبأن النصر بيده ومن عنده، ينصر من يشاء، وهو القوي العزيز، فمن ذكر هذا، وتأمل فيه لا تهوله قوة عدوه واستعداده، لإيمانه بأن الله تعالى أقوى منه، واذكروه أيضا بألسنتكم موافقة لقلوبكم بمثل التكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كل ما عداه، والدعاء والتضرع إليه (ﷻ) مع اليقين بأن لا يعجزه شيء، لعلكم تفلحون هذا الرجاء منوط

(١) تفسير الشعراوي ٨/٤٧٢٠.

(٢) المرجع السابق ٨/٤٧٢٢.

بالأمرين كليهما، أي: إن الثبات وذكر الله تعالى هما السببان المعنويان للفلاح والفوز في القتال في الدنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة)([1]).

إن ذكر الله تعالى هو الدافع الحقيقي والأساسي لكل ما تقدم فهو الذى يقوي العبد ويربطه بخالقه (ﷻ)، وهو الذي يدفع بالإنسان المسلم المخلص لله تعالى إلى أن تزهق روحه فداء لدين الله تعالى، وعلى مائدة الذكر تلتقى القلوب المؤمنة بالله تعالى.

وحينما أتحدث عن الذكر باعتباره وسيلة من وسائل النصر على الأعداء أقصد به الذكر القولي القلبي والفعلي، القولي باللسان كما ذكر الشيخ/ رشيد رضا: اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته، ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبع سننهم بنصر دينه، وإقامة سننه، واليقين بأن النصر من عند الله (ﷻ) والإنسان المسلم المخلص ما هو إلا سبب فقط.

أما الذكر الفعلي فذلك من خلال الثبات في أرض المعركة وعدم الزحف والتولي والهروب أمام العدو، كما قال الله تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**}([2]).

فالداعية الحقيقي ليس لدعوته نجاح بدون معايشة لله تعالى وذكره أناء الله وأطراف النهار، فكما أن الطعام غذاء الجسد كذلك الذكر غذاء الروح والقلب، فالجندي داعية إلى الله تعالى فى أرض معركته داعية بثباته، داعية بذكره لربه قولاً وفعلاً وعقيدة وسلوكاً.

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) للعلامة/محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)١٠/٢١، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٢) سورة الأنفال ١٥،١٦.

(إن ذكر الله يجعل القلوب تطمئن، وإن ذكر الله يملأها إيماناً ويقيناً، ورجاء في النصر، وإن ذكر الله يذهب فزع القلوب، ويساعد على الثبات، وإن ذكر الله يذكر بوعده بالنصر فهو يزيده أملاً بالنصر، وإن ذكر الله إذا جهر به في الميدان ازداد المؤمنون حماسة، وألقى بالرعب في قلوب المشركين، وإن ذكر الله يجعلهم لَا يشغلهم عن الله شاغل، وتكون أجسامهم وقلوبهم لنصره، و(كَثِيرًا) مفعول مطلق أي اذكروا الله ذكراً كثيراً بحيث لا تتوقفوا عن ذكره مهما تشتد الحرب، وتلتحم السيوف وتتلاقى بالحتوف(١).

ولو لم يكن الأمر كذلك ما عقب الله تعالى بعد بيان ذكره كثيراً بقوله: "**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**" وذلك لأن: (مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جارياً مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى، وهذا هو أعظم مقامات العبودية، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوباً فاز بالشهادة والدرجات العالية، أما إن كانت المقاتلة لا لله بل لأجل الثناء في الدنيا وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح)(٢).

فالداعية القائد حينما يكون ذاكراً لله تعالى سلوكاً وعقيدة في أغلب الأحيان يكون النصر حليفه، وذلك لكونه أمنياً على رعيته التي ائتمنه الله تعالى عليها، وكذلك مدعويه والممثلين في جنوده لا شك أنهم يفننون حياتهم في إعلاء كلمة الله تعالى وذلك لتوافر وسيلة جعلها الله تعالى من وسائل النصر على الأعداء ألا وهي الذكر الكثير لله تعالى.

وقد علق الإمام الرازي على الذكر الكثير فقال ما نصه: (وفي تفسير هذا الذكر قولان:

---

(١) زهرة التفاسير ٦/٣١٤٨،٣١٤٩.

(٢) مفاتيح الغيب١٥/٤٨٩.

القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم ذاكرين الله. قال ابن عباس: أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم، تنبيهاً على أن الإنسان لا يجوز أن يُخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله، ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله، كان الذاكر لله أعظم أجراً.

والقول الثاني: أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر، لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى)(١).

وما مشروعية صلاة الخوف ببعيدة عن عقولنا، أليست الصلاة ذكر قولي وفعلي لله تعالى، وبعد آية الصلاة مباشرة نرى الله تعالى يقول {**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**}(٢).

فنلاحظ في هذه الآية أن الله تعالى عقب بعد بيان وتوضيح أحكام صلاة الخوف ببيان أنه بمجرد انتهاء الصلاة عليكم بالمداومة على ذكر الله (ﷻ) على أي هيئة وكيفية المهم أن يكون المسلم داعية ومدعو مداوماً على ذكر الله (ﷻ)، وذلك لكون ذكر الله تعالى فيه شفاء للصدور وتنقية للقلوب وراحة للأبدان.

ومن خلال ما سبق ظهر جلياً واضحاً أهمية ذكر المسلم لربه (ﷻ)، وكون الذكر وسيلة من وسائل الانتصار على النفس والشيطان والأعداء، ودور الداعية والمدعو تجاه هذه الوسيلة الهامة الفعالة البناءة في المجتمع المسلم.

وننتقل بعد الذكر الكثير لله تعالى إلى طاعة الله وطاعة رسوله الكريم (ﷺ)، وذلك حسبما ورد في آيتنا المباركة، وهذا محل موضوع مبحثنا الثالث ألا وهو:

---

(١) المرجع السابق ٤٨٩/١٥.

(٢) سورة النساء ١٠٣.

المبحث الثالث

"طاعة الله وطاعة رسوله الكريم (ﷺ)"

نعيش في رحاب الصفحات القادمة مع الوسيلة الثالثة من وسائل النصر على الأعداء كما نصت على ذلك الآية الكريمة التي معنا، ومحل شاهدنا فيها قول الله تعالى{..... **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**}، إن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله (ﷺ) مسألة من الأهمية بمكان والتي ينبغي على المجتمع المسلم ألا يغفل عنها أبداً، وذلك لكون مسيرة الأمة مرتبط بها، فما سادت وانتصرت أمة من الأمم إلا بطاعتها لقائدها، وما خابت وتقاعست وانخذلت إلا بعصيانها لقائدها ورئيسها، فما بالك إذا كان هذا القائد والزعيم هو سيد المرسلين (ﷺ)، إنه أولى بالطاعة والانقياد له والحرص على تنفيذ كل أوامره ليل نهار لأن طاعته هي الوسيلة المضمونة مائة في المائة لإحراز النصر على الأعداء.

من أجل هذا نرى القرآن الكريم كثيراً ما وردت كلمات الطاعة سواء كان صراحة أو مشتقة، فقد ذكرت ما يقرب خمسة وستين مرة (٦٥)(١)، فمن ذلك قوله (ﷻ): {**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**}(٢)، فنلحظ في هذه الآية أن الله تعالى علق الفوز على ثلاثة أمور وهي الطاعة لله ولرسوله الكريم (ﷺ)، ثم الخشية لله تعالى، ثم تقوى الله (ﷻ)، ولقد أفاض الشيخ الشعراوي حينما قال (كان سيدنا الشيخ موسى شريف (~) و(ﷺ) يدرس لنا التفسير، فلما جاءت هذه الآية قال: اسمعوا، هذه برقية من الله تعالى: {**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**} فلم تدع هذه الآية حكماً من أحكام الإسلام

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٣٠٢.

(٢) سورة النور ٥٢.

إلا وجاءت به في هذه البرقية الموجزة التي جمعت المنهج كله، ومعنى {**يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ**} آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله، {**وَيَخْشَ اللهَ**} أي: يخافه لما سبق من الذنوب، {**وَيَتَّقْهِ**} في الباقي من عمره {**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**} وهكذا جمعت الآية المعاني الكثيرة في اللفظ القليل الموجز)(١).

ومن الآيات التي تحدثت عن مفهوم الطاعة ليس بطريق صريح قول الله تعالى: {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا**}(٢)، وفى تعليق على هذه الآية والتأكيد على أهمية طاعة الرسول الكريم (ﷺ) لأن طاعته من طاعة الله تعالى جاء في تفسير أبى السعود ما نصه: (أي ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات {**إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا**} أي إذا قضى رسول الله، وذكر الله تعالى لتعظيم أمره (ﷺ)، أو للإشعار بأن قضاءه (ﷺ) قضاء الله (ﷻ)، لأنه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله (ﷺ) لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها عبد الله، وقيل في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي (ﷺ) فزوجها من زيد فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا الله ورسول الله فزوجنا عبده {أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه (ﷺ) واختيارهم تلو الاختيار)(٣).

---

(١) تفسير الشعراوي ١٠٣٠٩/١٧.

(٢) سورة الأحزاب ٣٦.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للإمام/ أبى السعود محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ) ١٠٤/٧، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وعن الطاعة العمياء لله وللرسول وكونها مقوماً من مقومات العقيدة الإسلامية الصحيحة، حيث جعلها الله تعالى إحدى وسائل النصر على الأعداء نقرأ بعض ما كتبه الشهيد/سيد قطب في هذا السياق (فهذا المقوّم من مقومات العقيدة هو الذي استقر في قلوب تلك الجماعة الأولى من المسلمين استقراراً حقيقياً واستيقنته أنفسهم، وتكيفت به مشاعرهم.. هذا المقوم يتلخص في أنه ليس لهم في أنفسهم شيء وليس لهم من أمرهم شيء، إنما هم وما ملكت أيديهم لله، يصرفهم كيف يشاء، ويختار لهم ما يريد، وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام، وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام ويقسم لهم دورهم في رواية الوجود الكبيرة ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم، وليس لهم أن يختاروا الدور الذي يقومون به، لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم! وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح وإن هم إلا أجراء، لهم أجرهم على العمل، وليس لهم ولا عليهم في النتيجة! عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله أسلموها بكل ما فيها فلم يعد لهم منها شيء، وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله واستقامت حركاتهم مع دورته العامة وساروا في فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها، لا تحاول أن تخرج عنها، ..... إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم، وتصرف حركاتهم وهم مطمئنون لليد التي تقودهم، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين، سائرون معها في بساطة ويسر ولين، ..... هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال! واستقرار ذلك المقوم الأول في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة، وفي حياة المجتمع الإنساني إذ

ذاك، وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك، وخطوات الزمان، ولا تحتك بها أو تصطدم، فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام، وهو الذي بارك تلك الجهود، فإذا هي تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان)(١)، إن الذي أرسى هذا المقوم إنما هي الطاعة الكاملة لله وللرسول، فحياة الإنسان لا قيمة لها بدون الطاعة، حيث إن (طاعة الله ورسوله (ﷺ) من أقوى دعائم وعوامل النصر، فيجب على كل مجاهد في سبيل الله تعالى بل على كل مسلم أن لا يعصي الله طرفة عين، فما أمر الله تعالى به وجب الائتمار به، وما نهى عنه تعالى وجب الابتعاد عنه)(٢).

إن الطاعة لله ولرسول شرط من شروط النصر على الأعداء فإذا كانت الطاعة بجد وإخلاص وصفاء لله تعالى كانت النتيجة المتوقعة في أغلب الأحيان النصر حيث إنها: (واجب من واجبات النصر، وأمرهم الله تعالى بالابتعاد عن معصيته لأنهم في حالة أشد احتياجاً إلى رحمته من غيرها، وهذان العنصران طاعة الله وذكره من أقوى الأسباب الداعية للنصر والثبات وخذلان العدو)(٣).

وقد لخص سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الكلام السابق من خلال وصيته الخالدة لسيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) فنراه يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد.. فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العُدَّة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وآمرك ومن معك

(١) في ظلال القرآن ٢٨٦٧،٢٨٦٦/٥ (بتصرف).

(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى د/سعيد بن على القحطاني ٥٤١/٢، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٣) بيان المعاني للشيخ/ عبد القادر بن ملّا العاني ٢٩٦/٥، مطبعة الترقي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ- ١٩٦٥م.

أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا ولن نغلبهم بقوتنا واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون, فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا ولن يُسلَط علينا وإن أسأنا، فرُبَ قوم سُلِطَ عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم)(١). في كلام سيدنا عمر فهم ما أروعه وما أحسنه لمن أراد أن يفهم أو أن يتأمل، فنراه يربط بين الطاعة والمعصية وبين النصر والهزيمة، فالفارق بين الفريقين إنما هي الطاعة والمعصية فإذا تساويا الفريقين فريق المؤمنين مع فريق الكافرين في المعصية كانت الغلبة للكافرين وذلك لوجود الأسباب المادية المعينة لهم على ذلك مثل كثرة العدد وكثرة العدة.

ففى هذه الوصية نرى أنها: (العمدة التي يكون معها النصر، ويظهر بها الحق، ويسلم معها القلب، وتستمر معها على الاستقامة الجوارح، وذلك بأن يكون عمل المرء كله بالطاعة في امتثال الأمر واجتناب النهي، فإنما يقاتل المسلمون بأعمالهم لا بأعدادهم، وباعتقادهم لا أمدادهم، فلقد فتح الله الفتوح على قوم كانت

(١) فصل الخطاب في سيرة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – شخصيته وعصره د/ علي محمد محمد الصلابي٥٢٩، طبعة دار القمة، دار الإيمان، (بدون)، وللمزيد يراجع هذا الرابط قصة الإسلام بإشراف د/ راغب السرجاني http://islamstory.com/ar .

حلية سيوفهم إلا الغلاَّبي(١)، ولذلك قال (ﷺ): (إنما تُنصرون بضُعفائِكم) (٢)، إشارة الى أن الطاقة بالطاعة، والمنَّة بالهداية)(٣).

ولقد عرض القرآن الكريم مسألة الطاعة من خلال صور ثلاثة:

(**الصورة الأولى:** يقول الحق تبارك وتعالى: {**وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ**} وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة، ومرة ثانية يقول المولى (ﷻ): {**وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَسُولَ**} أي أنه سبحانه يكرر المطاع، ويكرر الأمر بالطاعة، ومرة ثالثة يقول (ﷻ): {**وَأَطِيعُواْ الرَسُولَ**} لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله (ﷻ)، وذكرها رسول الله (ﷺ) وتواردت السنة مع النص القرآني، فنحن نطيع الله والرسول في الأمر الصادر من الله، وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية، والإجمال لا بد له من تفصيل، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى: {**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**}(٤)، إذن فالله (ﷻ) أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول (ﷺ) لهذا الإجمال تفسيراً وتطبيقاً فهي خمس صلوات، ركعتان للصبح، وأربع ركعات للظهر، وأربع ركعات للعصر، وثلاث ركعات للمغرب، وأربع ركعات للعشاء، وحدد الرسول (ﷺ) الصلوات التي نجهر

---

(١) هذه الكلمة لم أقف لها على معنى، ويمكن لنا أن نقول إن معناها القلة والضعف بدليل ما جاء بعدها من حديث رسول الله (ﷺ).

(٢) مسند البزار للإمام/أبى بكر المعروف بالبزار (ت٢٩٢هـ) ٣٥٩/٣، رقم الحديث (١١٥٩)، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م – ٢٠٠٩م، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم.

(٣) أحكام القرآن للإمام/ ابن العربي (ت٥٤٣هـ) ٤١٨/٢، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٤) سورة النساء ١٠٣.

فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن، وحدد الصلوات التي لا نجهر فيها بالتلاوة.

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى: **{أَطِيعُواْ الله}**، أي أطيعوه في مجمل الحكم، وحين يقول: **{وَأَطِيعُواْ الرَسُولَ}** أي أطيعوه في تفصيل الحكم، وإذا ما قال: **{أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَسُولَ}** فهذا يعني أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ، والمراد واحد، وإذا لم يكن لله أمر، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول: **{وَأَطِيعُواْ الرَسُولَ}**، فالله (ﷻ) قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله:**{وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا}**(١)، أي أن كل أمر من الرسول إنما يأتي من واقع التفويض الذي أكرمه الله به)(٢).

إن بعض الناس يظن أن الطاعة مجرد كلمات تقال، وتكون في الطاعات فقط وهذا ليس من العلم الصحيح في شيء فكما تكون الطاعة في الأمر الإيجابي تكون كذلك في الأمر السلبي والذى يراد به النهي، حيث إن: (أمر الطاعة معناه الامتثال، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهي أيضاً، لأن الأمر طلب فعل، والنهي طلب عدم فعل، وكلاهما طلب)(٣).

يؤكد أمر الطاعة هذا حتى لو كان المسلم يصلى استجابة لأمر الله ورسوله ما رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله (ﷺ) فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: "ألم يقل الله: {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}، ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدي، فلما

---

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) تفسير الشعراوي ٤٥٦٧/٨،٤٥٦٨.

(٣) المرجع السابق ٤٥٦٧/٨.

أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال: {الحمد لله رب العالمين}، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته)([1]).

(إن الهتاف هنا للذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته.. إن هذا الهتاف إنما يجيء بعد جميع مقدماته الموحية.. يجيء بعد استعراض أحداث المعركة وبعد رؤية يد الله فيها، وتدبيره وتقديره، وعونه ومدده وبعد توكيد أن الله مع المؤمنين، وأن الله موهن كيد الكافرين. فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول، وإن التولي عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستنكراً قبيحاً لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر وعقل يتفكر)([2]).

إن الله تعالى حينما جعل طاعته وطاعة رسوله وسيلة من وسائل النصر على الأعداء جعلها هكذا لأن أمر الطاعة أمر فيه حياة أو ممات، وما أحداث غزوة أحد ببعيدة عن أذهاننا بالرغم من وجود النبي (ﷺ) بين أصحابه، وكل ما حدث في هذه الغزوة بسبب مخالفة أمر واحد لرسول الله (ﷺ)، ولهذا لا تُعد هذه الغزوة هزيمة بقدر ما تعد نصراً في جوهرها حيث اعتبارها كثير من المؤرخين هزيمة وإن كنت اختلف معهم فيما كتبوا، أكد كلامي هذا صاحب كتاب الرسول القائد فيما سطّره في كتابه بعنوان أنصر أم اندحار؟ فكتب يقول: (لا أتَّفق مع المؤرِّخين في اعتبار نتيجة غزوة أُحد نصرًا للمشركين واندحارًا للمسلمين؛ لأنَّ مناقشة المعركة عسكريًّا تُظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم؛ ذلك بأنَّ المسلمين قد انتصروا أولاً في ابتداء المعركة، حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم، والإحاطة بنِسائهم وأموالهم، وتعفير لوائهم في التراب، ولكن التفاف

(١) ك/ تفسير القرآن، ب/ ما جاء في فاتحة الكتاب ١٧/٦، رقم (٤٤٧٤).
(٢) في ظلال القرآن١٤٩٣/٣.

خالد بن الوليد وراءَ المسلمين وقطع خط الرجعة عليهم، جعل قوات المشركين تُطبق على المسلمين من كافة الجوانب، وهذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تكثر، ولكن بقِي النصر في جانبهم إلى آخر لحظة؛ لأنَّ نتيجة كل معركة عسكريًّا لا تُقاس بعدَد الخسائر في الأرواح فقط، بل تقاس بالحصول على هدف القتال، وهو القضاء المبرم على العدوِّ ماديًّا ومعنويًّا، وهذا هو الذي لم يحدث، ولا يمكن اعتبار فشل القوَّة الكبيرة – وهي قوَّة قريش حينئذ – في القضاء على القوَّة الصغيرة ماديًّا ومعنويًّا في مثل هذا الموقف نصرًا)([1]).

ولهذا دائماً ما أقول إن غزوة أحد في ظاهرها الهزيمة وفى حقيقتها الفوز والنصر الحقيقي كيف ذلك؟ أقول لو حدث انتصار حقيقي ظاهرياً وباطنياً للمسلمين في هذه الغزوة بالرغم من مخالفتهم لأمر رسول الله (ﷺ) لكانت سنة متبعة بين المسلمين ألا وهي عدم طاعة ولي الأمر، ولكن الله تعالى أراد أن يعلم المسلمون جميعاً أهمية الطاعة لولي الأمر في كل شئون الحياة ما لم يأمر بمنكر أو معصية وخاصة في أوقات الحروب، فبالرغم من وجود رسول الله (ﷺ) بين أصحابه إلا وأن وجوده (ﷺ) لم يمنع من إلحاق بعض الانكسار الداخلي في الصف الإسلامي وذلك حتى يعلم المسلمون سلفاً وخلفاً أهمية الطاعة وعدم عصيان ومخالفة أمر رئيسهم وقائدهم.

ومن خلال غزوة أحد ظهر لنا أن مخالفة أمر النبي (ﷺ) من أهم أسباب الهزيمة الظاهرية وتخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمره (ﷺ)، ذهب النصر بعد أن انعقدت أسبابه، ولاحت بوادره، فالمسلمون انتصروا في بداية المعركة حينما امتثلوا أوامر النبي (ﷺ)، بينما انهزموا حينما

(١) الرسول القائد تأليف/محمود شيت خطاب ص ١١٩، طبعة مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م.

خالفوا أمره (ﷺ) وفي ذلك يقول الله (ﷻ): {**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**}(١)، ومن ثم ينبغي أن يُعلم أنه وإن كان إعداد العدة والعدد مطلباً شرعياً، إلا أن النصر والهزيمة لا يتوقفان عليهما، فبالمعاصي تدور الدوائر، فقد فاضت أرواح في تلك الغزوة بسبب معصية، وهل هناك معصية أكثر جرماً من مخالفة لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم (ﷺ).

ولقد علق الدكتور/ البوطي على أحداث غزوة أُحد تعليقاً ما أروعه وذلك بسبب مخالفة الرماة لأمر النبي (ﷺ) فكتب يقول: سابعاً: إذا تأملت مدة الحرب التي استمرت بين المسلمين وأعدائهم في هذه الغزوة وجدناها تنقسم إلى شطرين: الشطر الأول: وفيه التزم المسلمون أماكنهم وأوامرهم التي كانوا قد تلقوها من قائدهم (ﷺ)، فما الذي كان من ثمرة ذلك؟ لقد سارع النصر إلى المسلين، وسارعت الهزيمة إلي صفوف المشركين، وما هو إلا أن اكتسح الرعب أفئدة الآلاف الثلاثة فانحسروا عن أماكنهم وأخذوا يولون الأدبار، وهذا الشطر هو الذي علقت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى:{**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ .....**}.

الشطر الثاني: وفيه أخذ المسلمون ينطلقون خلف المشركين ليجهزوا على من يدركونه منهم، وليأخذوا الغنائم والأسلاب، وحينئذ نظر الرماة من فوق الجبل الذي كانوا يتمركزون فيه، إلى إخوانهم وهم يضعون السيوف في أعدائهم اللائذين بالفرار ويعودون بالأموال والغنائم، فرغب بعضهم أن يشتركوا معهم في الغنيمة، وخُيلت إليهم هذه الرغبة أن الفترة الزمنية للأوامر التي تلقوها من رسول الله (ﷺ)

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

قد انتهت، فهم في حِلّ منها وهم في غنى عن انتظار إذن رسول الله (ﷺ) لهم بمغادرة أماكنهم وهو اجتهاد خالفهم فيه بعض زملائهم وفي مقدمتهم أميرهم عبد الله بن جُبير، ولكن أصحاب هذا الاجتهاد نزلوا وانطلقوا يشاركون في أخذ الغنائم فما الذي كان من نتيجة ذلك؟

لقد كان أن انقلب الرعب الذي داهم أفئدة المشركين إلى استبسال جديد... وكان أن تفتحت أسباب الحيلة والمكر لدى خالد بن الوليد الذي كان يولي هارباً، فنظر حوله متأملاً، فوجد الجبل المحصن قد خلا من حُماته وحراسه، فلمست الفكرة العسكرية في رأسه، وما هو إلا أن استدار إلى الجبل مع من معه من المشركين، فقتلوا من بقي ممن لم ينزل وأوجعوا المسلمين رمياً بالسهام من خلفهم .... وجاء الرعب هذه المرة ليغزو أفئدة المسلمين، كما رأينا، وهذا الشطر من المعركة هو الذي علقت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: {**حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**}(١)، وانظر كم كان وبال هذه الخطيئة جسيماً، وكم كانت نتيجتها عامة .... لقد عادت خطيئة أفراد قليلين في جيش المسلمين بالوبال عليهم جميعاً، بحيث لم ينج حتى رسول (ﷺ) من نتائجها، وتلك هي سنة الله في الكون، لم يمنعها من الاستمرار أن رسول الله (ﷺ) موجود في ذلك الجيش، وأنه أحب الخلق إلى ربه (ﷻ)، فتأمل أنت في نسبة خطيئة أولئك الأفراد، إلى أخطار المسلمين المتنوعة اليوم، والمتعلقة بشتى نواحي حياتنا العامة والخاصة، تأمل هذا لتتصور مدى لطف الله بالمسلمين إذ لا يهلكهم بما تكسب أيديهم، وبتقاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاجتماع على كلمة واحدة على ذلك، وإذا تأملت في هذا، علمت الجواب عن

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

سؤال بعضهم اليوم، عن الحكمة من أن الشعوب الإسلامية تظل مغلوبة على أمرها، أمام الدول الباغية الأخرى، على الرغم من أن هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون)([1]).

إن غزوة أحد غزوة اجتمع فيها النصر والهزيمة، ومع ما فيها من آلام وجراح، وشهداء وجرحى، إلا أنها كانت درساً عملياً للصحابة الكرام وللأمة الإسلامية بأسرها في مشارق الأرض ومغاربها، ليتعلموا شؤم وعقوبة المعصية، فإذا أَمر الرسول (ﷺ) فلا خيرة لنا إلا أن نقول كما قال السابقون سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قال الله تعالى: {**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا**}([2]).

فمخالفة أوامر النبي (ﷺ) سبب كل عناء، وطريق كل شقاء، وهي من أسباب الهزيمة في الدنيا وفى الحروب، ومن ثم ينبغي الحذر منها والبعد عنها، فما أحرى بأمتنا الإسلامية أفراداً ومجتمعات، أن تقف عند هذه الغزوة، وتستفيد من دروسها وعبرها في واقعنا المعاصر ..... ونلاحظ أن الله تعالى أمر: (المؤمنين بالاستجابة لله وللرسول، وناداهم باسم الإيمان، فقال {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**}([3]) فأخبر الله تعالى أن الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم فيه حياة لهم وصلاح لهم؛ لأنه يدعوهم إلى الحق والإيمان وإلى العمل بالقرآن الذي فيه نجاتهم وبقاؤهم وسعادتهم وحياتهم بعد

---

(١) فقه السيرة النبوية د/محمد سعيد البوطي١٨٠،١٨١، طبعة دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٢) سورة الأحزاب ٣٦.

(٣) سورة الأنفال ٢٤.

موتهم، وعصمتهم في الدارين..... فطاعة الله ورسوله والاستجابة لله ولرسوله سبب للحياة الحقيقية، حياة الإيمان والهدى والرشاد والعزة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد أخبر الله تعالى أن ما عند الله من الثواب في الآخرة خير وأبقى للمؤمنين الذين من صفاتهم الاستجابة لربهم، وذلك باتباع رسله وطاعة أمره واجتناب نهيه، مع توكلهم على الله وبُعدهم عن الكبائر والفواحش، وإقامتهم للصلاة، وإحسانهم إلى خلق الله بالمال والعفو والحلم وكظم الغيظ عند الغضب، فقال تعالى: {**فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**}(١)، وقد أوضح الله تعالى عاقبة المستجيبين والمطيعين لله ولرسوله، وإن عاقبتهم حميدة، وما لهم من السعادة والمال الحسن الطيب، وإن لهم الجزاء الحسن وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهم في نعمة وحبور وبهجة وسرور، قد (ﷻ) ورضوا عنه، وأسكنهم فسيح جناته، وأحلهم دار كرامته ورضوانه، أما الذين لم يستجيبوا لله ولم يطيعوا الله، فإن عاقبتهم وخيمة، ومصيرهم مؤلم، ومأواهم في الآخرة جهنم بعد سوء الحساب حين يناقشون الحساب، ومن نوقش الحساب عُذب، يحاسبون على أعمالهم جليلها وحقيرها، ثم يدخلون النار وبئس الفراش والمهاد لهم، ويودون لو يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملىء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة، ولكنه لا يتقبل منهم، قال الله تعالى فيهم: {**وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ**

(١) سورة الشورى ٣٦:٣٨.

لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}(١)(٢).

هذا هو مصير الطائع لله تعالى ومصير المخالف كل يجازى من جنس عمله المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، فلا يبعد بعد كل هذا أن نتعجب من كون طاعة الله ورسوله وسيلة من وسائل النصر على الأعداء ويجعلها الله تعالى الوسيلة الثالثة من وسائل النصر على الأعداء.

إن الدعاة إلى الله تعالى عليهم بمنهج نبيهم (ﷺ) في معاملة المخالف لهم فلم نقرأ أن الرسول (ﷺ) عنّف مخالفاً له أو زجره بما يتعامل به بعض دعاة اليوم مع أقوامهم من عنف وزجر وتنكيل وتشهير بهم وكأنهم من بنى إسرائيل ليس لهم توبة أبداً وكأن الشمس قد طلعت من مغربها، إن الحكمة الإلهية أرادت أن يخالف الرماة أمر الرسول الكريم وذلك لكى نتعلم نحن أنه لا معصوم إلا نبينا (ﷺ)، فليس الخطأ في المخالفة والعصيان إنما الخطأ في المداومة والاستمرار على المخالفة وعلى العصيان، من أجل هذا نرى أن الأمة الإسلامية لم تنكسر شوكها وتُهزم بعد غزوة أُحد في حياة رسولنا (ﷺ)، ولا في حياة الصديق أبى بكر وعمر (رضي الله عنهما) أجمعين ..... وغيرهم الكثير والكثير ما دامت الرعية طائعة لأمر ربها طائعة لأمر ولي أمرها ما دام يعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم مع الفهم الصحيح السليم لهما، وهذا مشروط أن لا يأمر بمعصية الله، فإن أمر بذلك فلا سمع له ولا طاعة، حيث إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

---

(١) سورة الرعد ١٨.

(٢) الإيضاح والتبيين لبعض صفات المؤمنين للشيخ/عبدالعزيز الراجحي ٩٦،٩٧،(بدون)، والكتاب موجود على المكتبة الشاملة بدون أرقام صفحات.

على الدعاة وأهل العلم أن يدركوا أهمية الطاعة وعدم المخالفة لأمر الله ورسوله وولي أمر المسلمين ما دام حاكماً بشرع الله (ﷻ)، فقد روي عن عبادة بن الصامت أنه قال دعانا رسول الله (ﷺ) فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان)([1]).

وفى تعليق على هذا الحديث وأهمية الطاعة وعدم مخالفة ولي الأمر إلا فى حالة ظهور المنكر منهم نرى الإمام النووي يقول: (والمراد بالكفر هنا المعاصي، ومعنى عندكم من الله فيه برهان أي: تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم.....)([2]).

أليس هذا دليلاً على الطاعة لله وللرسول ولولي الأمر ما دام هو طائعاً وعاملاً بطاعة الله ورسوله، حتى في لحظات الأمر بمعصية – والعياذ بالله تعالى – فلا يُسمع له مطلقاً في كل أوامره، بل يُسمع له ويُطاع مطلقاً إلا في المعصية فلا سمع ولا طاعة.

---

(١) الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم للإمام/ أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ك/الإمارة، ب/وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ١٦/٦ رقم (٤٨٧٧)، نشر: دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام/أبى زكريا محيي الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ)، ٢٢٩/١٢، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

ولقد أحسن الإمام ابن رجب حينما تحدث عن السمع والطاعة للولاة فقال: (وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم)(١).

على الدعاة في عصرنا الحاضر أن يعملوا ويحثوا الناس على الطاعة وأهميتها لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، لأن في طاعتهم سعادة الدنيا، وإصلاح أحوالهم المعيشية والأخروية، ولعل في طاعتهم أيضاً هذه خروج مما وقع فيه العالم العربي والإسلامي من محن وأزمات أوشكت أن تؤدى إلى نهايته، وذلك لكون الله (ﷻ) أكد على مسألة الطاعة وجعلها وسيلة من وسائل النصر على الأعداء.

أيها الدعاة إلى الله تعالى أيها المدعوين إلى الله تعالى من خلال الدعاة أنفسهم اقرأوا ما سجله ابن تيمية في فتاويه حينما تحدث عن الطاعة وأهمية طاعة ولاة الأمور: (فطاعة الله والرسول واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعته، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال، فإن أعطوه أطاعهم، وإن منعوه عصاهم؛ فما له في الآخرة من خلاق – أي لا أجر له في الآخرة –)(٢).

إن الداعية إلى الله تعالى إذا لم يكن مطيعاً لله ولرسوله (ﷺ) فكيف يؤثر ويثمر بدعوته في مدعويه، وذلك لأن المدعو فقد القدوة التي يقتدى بها وتقربه إلى الله تعالى، وذلك من خلال الدعاة أنفسهم، ولهذا ما وجدت داعية مقرباً

---

(١) جامع العلوم والحكم للإمام/ ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) ١١٧/٢، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس.

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/٣٥.

محبوباً بين مدعويه إلا وكانت له علاقة بالله (ﷻ) وذلك من خلال الطاعة لربه ولرسوله الكريم (ﷺ) حيث تكون الطاعة القولية والسلوكية من الداعية لله تعالى سبباً في تفتيح الأبواب المغلقة، وسبباً في توفيق الله تعالى في وصول المعلومة إلى أذهان المدعوين، من أجل هذا نرى الدعاة في واقعنا المعاصر ليسوا على درجة واحدة من القبول لدى المدعوين وأنا أرجع السبب في ذلك إلى مدى علاقة الداعية بربه (ﷻ) خلال الطاعة والالتزام بمنهجه (ﷺ).

وأُذكر نفسي وأُذكر الدعاة إلى الله تعالى والمدعوين كذلك بكلام ما أحسنه وأروعه لو وضعناه نصب عيوننا للعلامة ابن عثيمين وذلك حين شرع في شرح الأصول الستة(١) وجعل الثالث فيها السمع والطاعة لولاة الأمور فقال: (إن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً، فبين الله هذا بياناً شائعاً كافياً بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدراً، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به، ..... ورأى كل فرد من أفراد الرعية نفسه أميراً أو بمنزلة الأمير المنابذ للأمير، فالواجب علينا جميعاً –رعاة ورعية–

(١) الأصول الستة التي تناولها العلامة ابن عثيمين بالشرح هي:
الأصل الأول: الإخلاص وبيان ضده وهو الشرك.
الأصل الثاني: الاجتماع في الدين والنهي عن التفرق فيه.
الأصل الثالث: السمع والطاعة لولاة الأمر.
الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، ومن تشبه بهم وليس منهم.
الأصل الخامس: بيان من هم أولياء الله.
الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة.

أن نقوم بما أوجب الله علينا من التحاب والتعاون على البر والتقوى، والاجتماع على المصالح لنكون من الفائزين)([1]).

وبنظرة دعوية لوسيلة الطاعة لله وللرسول ولولاة الأمور باعتبارها من وسائل النصر على النفس وعلى الأعداء نرى أن من فوائدها الدعوية على الفرد والمجتمع ما يلى:

أولاً: امتثال أمر الله تعالى وابتدار طاعته، فإن من أطاع بالمعروف فقد أطاع الله، ولا شك أن هذا الامتثال لأوامر الله من أعظم الأدلة على عبودية الإنسان لله، وخضوعه وإيمانه به (ﷻ) ومن كمال الإيمان أن يكون العبد مطيعاً لله ولرسوله، وهذه الطاعة لها أثارها الدعوية على كل من الداعية كفرد، ومدعويه كمجتمع يعيش مع داعيته.

ثانياً: إن أمور الدولة وشئونها لا تستقيم إلا من خلال الطاعة من كل أفراد الرعية لولي أمر المسلمين، ما دام هو نفسه مطيعاً لله ورسوله، وهذا دور الدعاة إلى الله تعالى ليرشدوا مدعويهم إلى أنه لا استقامة لدولهم إلا بطاعتهم لأولياء أمورهم، وذلك من خلال دروسهم وخطبهم ولقاءاتهم المتعددة مع الشباب وكل طوائف المجتمع .....

ثالثاً: بطاعة ولي الأمر يعم الأمن والاستقرار في ربوع الدولة الإسلامية، فالطاعة لولاة الأمر تعني سيطرة الشرع على كل التصرفات، والتغلب على الهوى والنفس اللذين يَجُران إلى الجريمة والتمرد والعصيان، وثمرة هذا المزيد من تحقيق الأمن والاستقرار والطمأنينة في النفس والمجتمع والبلاد، وإذا عمّ الأمن والأمان

---

(١) شرح كشف الشبهات ويليه شرح الأصول الستة للإمام/ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت١٤٢١هـ)١/٢٥ :٢٨، إعداد: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، نشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

في المجتمع استطاع الدعاة إلى الله تعالى أن يبلغوا دعوة نبيهم في شتى بقاع الأرض دون تأثر أو ميول للأهواء الشخصية أو ضغط عليهم من أحد.

رابعاً: بالطاعة لولي الأمر تظهر الأمة المسلمة بمظهر الهيبة والقوة والرهبة أمام الأعداء، فإذا كانت هذه الأمة تأتمر بأوامر قيادتها العُليْا في غير معصية الله، فإن هذا سيكون له أثره على الأعداء بلا شك لما فيه من معاني الاتحاد والائتلاف والتماسك بين أفراد الأمة، ولهذا يقول سبحانه: {**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .....**}(١)، وقوله تعالى:{**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**}(٢). أمة تأتمر بأمر الله وتنتهى بنهي رسوله الكريم (ﷺ) لها من العزة والكرامة ما يجعل أعداءها تخشاها وتقدرها، تتوقع كيف تكون الدعوة فيها، وكيف تكون أحوال الدعاة فيها ومدعويها لا شك أنه الخير الكثير الذى يرجوه الله تعالى من أمة ودعاة قائدهم سيدنا محمد (ﷺ).

خامساً: بالطاعة لولي الأمر تتفرغ الأمة للبناء والتعمير وتحقيق أهدافها التنموية لبناء الإنسان المسلم، وهذه هي حقيقة الدعوة السلوكية الفعلية من الدعاة تجاه مدعويهم إنها بيان مهمة الإنسان الحقيقية في الأرض حيث ما خلقه الله تعالى إلا لعبادته ولتعمير الأرض، ولذا يقول الله تبارك وتعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**}(٣)، ونرى الله تعالى يذكر على لسان سيدنا صالح لقومه وذلك بعد دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذه هي المهمة الأولى لأي نبي أو داعية، نراه يجعل المهمة الثانية من مهمات دعوته الدعوة لتعمير

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) سورة المؤمنون ٥٢.

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

الأرض فيقول تعالى:{..... **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** .....}(١)، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما ذكر علماؤنا الأجلاء. فكيف تعمر الأرض بدون طاعة لولاة الأمور، وهنا يظهر الأثر الدعوي للدعاة إلى الله تعالى في ترغيب الناس وحثهم على الإقبال على الله تعالى من خلال البناء والتعمير وتحقيق التنمية العامة والشاملة في كل جوانب الحياة، وكل هذا من صميم العبادة التي تعبدنا بها ربنا (ﷻ).

هذه بعض الفوائد الدعوية والتي تعود على الفرد والمجتمع دعاة ومدعوين من جراء الطاعة لله وللرسول ولولي أمر المسلمين، وطاعة المسلمين بعضهم لبعض ما دامت مقتبسة من منهج القرآن الكريم وصحيح سنة نبينا محمد (ﷺ)، لنا فيها الخير العظيم إن وُضعت نُصب عيوننا وفهمنا معناها الحقيقي الدعوي.

وكما أن للطاعة فوائد (إيجابيات)، كذلك أيضاً للمخالفة (سلبيات) ينبغي على الدعاة إلى الله تعالى أن يحذروا منها مدعويهم حتى لا يقتربوا منها أو يقعوا فيها، فمن هذه السلبيات:

أولاً: في المخالفة لولي الأمر معصية لله جل وعلا، ومخالفة لأمره (ﷻ) بالطاعة لولي الأمر في غير معصية.

ثانياً: المخالفة لولي الأمر فيها تمزيق لوحدة الأمة الإسلامية وتهديد لأمنها واقتصادها، ولا شك أن الواقع المعاصر للدول العربية الإسلامية أكبر دليل على ذلك.

ثالثاً: عدم الطاعة والمخالفة لولي الأمر فيها إضرار بالأمن والاستقرار ويسبب الخوف والقلق لأفراد المجتمع كله، ولا شك أن هذا الخوف والقلق يؤدى

(١) سورة هود ٦١.

إلى عدم استقرار الأوضاع الدعوية والأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.....في البلاد، والواقع المعاصر أكبر شاهد على هذا.

إن السمع والطاعة لله ورسوله ولولاة أمر المسلمين أصل من أصول العقيدة الإسلامية، وسبب من أسباب الانتصار على الأعداء إن أراد المسلمون ذلك، وما ذاك إلا لبالغ أهميته وعظم شانه، إذ بالسمع والطاعة لهم تنتظم مصالح الدين والدنيا معاً، وبالافتيات عليهم قولاً أو فعلاً فساد الدين والدنيا.

وأختم هذا المبحث بكلام للعلامة ابن تيمية في كتابه الرائع السياسة الشرعية حيث ذكر تحت عنوان (الولايات) ما نصه: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، ..... ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ..... فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها)(١).

هذا أهم ما يتعلق بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم (ﷺ) وذلك باعتبار أن الطاعة الوسيلة الثالثة من وسائل النصر على الأعداء ويلحق بها تلقائياً طاعة ولي أمر المسلمين ما دام طائعاً لله ورسوله سائراً على نهجهم وطريقهم، وأهمية الطاعة وخاصة في المجال الدعوي والذى نحن بصدده.

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية للإمام/ ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ١٢٩:١٣١، نشر وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

المبحث الرابع
"الاجتماع لا الاختلاف والتوحد لا التفرق"

مازالنا نعيش مع وسائل النصر على الأعداء في رحاب سورة الأنفال كما نصت على ذلك الآيات القرآنية التي معنا، وفيها يقول رب العزة (ﷻ): {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} وبعد معايشة إيمانية دعوية روحانية للوسائل الثلاثة الأولى، نعيش مع الوسيلة الرابعة والتي عنونت لها بعنوان "الاجتماع لا الاختلاف والتوحد لا التفرق"(١)، وذلك أخذاً من قوله (ﷻ) "**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ".

إن المتأمل في هذه الوسيلة ليرى بعين ثاقبة أهميتها وقيمتها في حياة المجتمع المسلم خاص، فالاجتماع والتوحد فيه دلالة واضحة على تماسك المجتمع المسلم، دلالة على قوته، فيه دلالة على اتحاده في الخير ووقوفه صفاً واحداً ضد أعدائه، فيه دلالة على رسوخ الإيمان في قلوب أبنائه، فلولا رسوخ الإيمان في القلوب ما تماسك المجتمع الإسلامي، وما توحد وما صار جسداً واحداً يحمى بعضه بعضاً.

---

(١) أقصد بالاختلاف هنا الاختلاف في الأصول الذى يؤدى إلى الفرقة والتنازع والشقاق، أما الخلاف في الفروع فلا بأس به وهو سنة الله في كونه، ذكر ابن تيمية قوله: "وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير. يراجع مجموع الفتاوى ٢٤/١٧٣.

إن القارئ للقرآن الكريم والمقلب لصفحاته يرى حديثه كثيراً وكثيراً عن هذه الوسيلة، "وسيلة التوحد والاجتماع" لأنه إذا لم يتحقق التوحد والاجتماع فسوف يتحقق عكسه ألا وهو ما حذرت منه الآيات الكريمة "**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**" لأن التنازع والتفرق والاختلاف هو المعنى المضاد للتوحد والاجتماع ولم الشمل.

ثم إنه من المقرر شرعاً وعقلاً أن أعظم ضرر لحق بالأمة الإسلامية هو اختلاف المسلمين وتفرق كلمتهم وذهاب ريحهم كما نصت على ذلك الآية القرآنية، حيث إن الفشل وذهاب الريح تعبير بليغ عن نقص قوة المسلمين وقصورهم عن بلوغ مقاصدهم في تقوية جيوشهم وإرهاب أعدائهم، وكذلك ضعف دولتهم أو سقوطها في يد الغزاة والمحتلين، ولا تعبير أدق في وصف واقع المسلمين الأليم من الفشل وذهاب الريح، ذلك بأنهم اختلفوا وتنازعوا ففشلوا في تقوية جبهتهم الداخلية وإعداد القوة اللازمة لحماية أنفسهم، فباع طوائف من المسلمين ذممهم للكفار، فوالوهم من دون المؤمنين، وظلم الرعاة رعاياهم، فجوعوهم، وضربوا ظهورهم، وأهانوا كراماتهم، فكرهت الرعايا رعاتهم فخرجت فئام منهم عن الجماعة وشقوا عصى الطاعة.

ولقد تنوعت أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في الدلالة على وجوب الوحدة، والتحذير من التفرق والاختلاف فتارة تبين أن من أهم خصائص هذه الأمة أنها أمة واحدة، قال الله (ﷻ): **{وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}**(١).

وتارة ثانية يُبين القرآن الكريم أن هناك أموراً لا يمكن أن تحصل إلا بالوحدة والاتحاد، فالإصلاح بين المتخاصمين، وتقوى الله تعالى، والرحمة من الله لنا، لا

(١) سورة المؤمنون ٥١.

يمكن أن تتحقق الوحدة إلا بها، وذلك من خلال قول الله (ﷻ): **{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}**(١)، وفى مطلع سورة الأنفال نرى قوله تعالى في أول آية منها:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فإنه لا يمكن للوحدة والاتحاد والتعاون أن يتحقق إلا بهذه الأمور وأمثالها، فإذا عُدمت هذه الأمور تحقق مكانها ما حذرنا ربنا منه ألا وهو التنازع والتفرق والشقاق، وإذا حدث التنازع والتفرق كانت الثمرة كما ذكر الله تعالى "**فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**".

وتارة ثالثة تدعو بالأمر المباشر إلى الاعتصام وعدم التفرقة وذلك من خلال قول الله تعالى:**{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .....}**(٢).

في هذه الآية نلحظ أن الله تعالى أمر عباده بما: (يعينهم على التقوى الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها)(٣).

---

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١٤١/١.

وقد ذكر جمع علمائنا أن الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج حينما تذكروا يوم بعاث بإحياء من أحد اليهود الجالسين معهم في مجلسهم، فكادت الحرب أن تقوم بينهم مرة ثانية فأنزل الله تعالى هذه الآية مؤكداً على الاعتصام والاتحاد ووحدة الصف الإسلامي وعدم التفرق والاختلاف لأنه سبب من أسباب الهزيمة والانكسار، وما كل هذا إلا بسبب اليهود الملاعين في كل زمان ومكان، ومفهوم الآية أوسع مدى من هذه الحادثة بكثير (فهي تشير – مع ما قبلها في السياق وما بعدها – بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل، والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم، ومن التفرق كما تفرقوا... هذه التحذيرات تشير بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار.. وهو دأب يهود في كل زمان ومكان، وهو عملها اليوم وغداً في الصف المسلم في كل وقت)(١).

وفى توضيح لمعنى الآية أيضاً نرى الإمام القرطبي يذكر أن الله تعالى: (يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة، ..... ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخواناً، فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر)(٢).

وقد ضرب الله (ﷻ) مثالاً رائعاً للاختلاف والتفرق من واقع المسلمين المعاصر وقت أن كان الرسول الكريم (ﷺ) حيّاً بين أصحابه وذلك من خلال غزوة أُحد، واختلاف الرماة وتفرقهم في ترك الجبل الذى أُمروا بالبقاء عليه، قال مبيناً لهم سبب ما أصابهم يوم أُحد حين انقلب النصر في أول المعركة إلى

(١) في ظلال القرآن ٤٤٣/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٩/٤.

هزيمة، وهذا وما ذكرته لنا الآية الكريمة:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}(١).

ولو أردنا أن نقف مع هذه الآية وقفة من أجل الوصول لسبب الانكسار والتحول العجيب في هذه المعركة لاستطاعنا القول بأنها: (نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ وهو ما وعدهم على لسان نبيه (ﷺ) من النصر حيث قال للرماة: لا تبرحوا مكانكم فإنا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان، وقد كان كذلك فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقون نبلهم والباقون يضربون بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً ..... "فَشِلْتُمْ" أي جبنتم وضعف رأيكم، أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف القلب، "وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ" أي في أمر الرسول (ﷺ) فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلاً وضرباً فما موقفنا هذا، وقال رئيسهم عبد الله بن جبير: لا نخالف أمر الرسول (ﷺ) فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون، وذلك قوله تعالى "وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ" أي من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه، وقد سبق وقيد العصيان بما بعده تنبيهاً على عِظم المعصية لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية،..... قال ابن مسعود (رضي الله عنه): ما علمت أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية "وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ" وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى

(١) سورة آل عمران١٥٢.

نالوا شرف الشهادة ..... "**وَلَقَدْ عَفا عَنْكُمْ**" تفضلاً أو لما علم من ندمكم على المخالفة "وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" أي شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال إذ الابتلاء أيضاً رحمة بحسب اقتضاء أحوالهم ذلك)(١)، فإذا حصل هذا لأصحاب النبي (ﷺ) وهو بين أظهرهم، وهم من هم في الفضل والمكانة، فكيف بمن هم دونهم في الفضل بعد رسول الله (ﷺ)؟

وفى آية رابعة في رحاب سورة آل عمران بعد آية الاعتصام مباشرة ورقمها ١٠٣، نرى الآية رقم ١٠٥ والتي يقول فيها ربنا (ﷻ): {**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**}، ويوضح معناها الإمام الطبري حينما يذكر: (أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله)(٢).

هذا عرض موجز من آيات الذكر الحكيم لأهمية التوحد والاجتماع والاعتصام والتعاون بين أبناء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والتحذير من الفرقة والاختلاف والبعد عن دين الله تعالى لأن هذا سبب من أسباب الهزيمة الحسية والمعنوية، فكما أن في الفرقة الهزيمة والانكسار كذلك في التوحد والاجتماع النصر والظفر على الأعداء، وهذا ما نصت عليه الآية – المبحث الثالث محل شاهدنا –.

---

(١) روح البيان للإمام/ إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (ت ١١٢٧هـ) ١١٠/٢، نشر دار الفكر، بيروت، (بتصرف).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للإمام/أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) ٩٣/٧، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

فالآيات القرآنية كلها – التي ذكرنها والتي لم نذكرها – نلاحظ أنها تأمر المسلمين بالأخذ بكل ما يزيد التوحد والاجتماع والمحبة بينهم، وتنهي عن كل ما يُولد البغضاء والتفرق في صفوفهم، وتأمرهم كذلك صراحة بأن يكونوا إخوة، ولا يمكن للمسلمين أن يكونوا إخوة إلا إذا كانوا متحدين، فإن التوحد والاجتماع ضد الفرقة والاختلاف.

وكما تنوعت أساليب القرآن في الدلالة على وجوب الوحدة، نرى كذلك في سنة نبينا العدنان (ﷺ) الكثير والكثير من الأحاديث الدالة على وجوب التوحد والاجتماع والتحذير من التفرق والاختلاف لأنه سبب للتهلكة والتفرقة، والتنازع والتفرق كذلك سبب من أسباب الهزيمة والضعف والانكسار في جسد الأمة الإسلامية، فنذكر نموذجاً من الأحاديث الدالة دلالة واضحة على – مبحثنا الرابع –، فمن هذه الأحاديث ما رُوي في صحيح مسلم عن أَبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): "إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال"(١).

وفى مسند الإمام أحمد ما يدل على أهمية التوحد وملازمة الجماعة والحذر من الفرقة فقد روى عن زكريا بن سلام، عن أبيه، عن رجل قال: انتهيت إلى النبي (ﷺ) وهو يقول: "أيها الناس، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، أيها الناس، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة"(٢)، قالها ثلاثاً.

ونرى كذلك من أساليب الشريعة في الحث على الوحدة بين المسلمين والتحذير من الشذوذ والاختلاف ومفارقة الجماعة، وذلك من خلال ما جاء في

(١) ك/الأقضية ب/ النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة..... ٣/١٣٤٠، برقم (١٧١٥).
(٢) ٣٨/٢٢٠،٢٢١ برقم (٢٣١٤٥).

سنن الإمام الترمذي عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله (ﷺ) فينا فقال: أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)(١)، وعن أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال: لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث)(٢).

وفى تعليق على هذا الحديث نقرأ قول الإمام النووي: (في هذا الحديث تحريم الهجر بين المسلمين أكثر من ثلاثة ليال وإباحتها في الثلاث الأول بنص الحديث والثاني بمفهومه قالوا وإنما عُفي عنها في الثلاث لأن الآدمي مجبول على الغضب وسوء الخلق ونحو ذلك، فعفي عن الهجرة في الثلاثة ليذهب ذلك العارض، وقيل إن الحديث لا يقتضي إباحة الهجرة في الثلاثة وهذا على مذهب من يقول لا يحتج بالمفهوم ودليل الخطاب)(٣).

ومن أجل الجماعة وأهميتها نرى رسولنا الكريم (ﷺ) يحث عليها في الكثير من الأحاديث فمن ذلك ما رُوي عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله (ﷺ)

---

(١) أبواب الفتن، ب/ ما جاء في لزوم الجماعة ٣٥/٤، برقم (٣١٦٥).

(٢) أخرجه الإمام مسلم ك/البر والصلة، ب/ النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر ١٩٨٤/٤، برقم (٢٥٥٨).

(٣) شرح صحيح مسلم للإمام النووي١١٧/١٦.

يقول: " ما من ثلاثة في قرية، لا يؤذن ولا تقام فيهم الصلوات، إلا استحوذ عليهم الشيطان عليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية)([1]).

في هذا الحديث الشريف نرى توجيهاً من الرسول الكريم بالجماعة وملازمتها لأكثر من ثلاثة في أي مكان على وجه البسيطة بالأذان وإقامة الصلوات في الجماعات، لأنه إذا لم يتحقق هذا تحقق عكسه ألا وهو التفرق والاختلاف وسيطرة الشيطان على المختلفين المتشرذمين، ثم يضرب الرسول مثلاً توضيحياً لبيان الأثر السلبي للتفرق والاختلاف وعدم ملازمة الجماعة بقوله "فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" فراعي الغنم إذا لم تمش غنمه دفعة واحدة أثناء الرعي فإن من تمشى وحدها معرضة للأكل من الذئاب، هكذا الإنسان المسلم حينما يكون وحده للشيطان عليه تأثير أكثر مما يكون مع جماعة، فالجماعة يحمى بعضها بعضاً، أكد هذا المعنى الحديث السابق ذكره "..... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ......"، وحديث رسول الله الذى رُوي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله (ﷺ): "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"([2]).

إن الشريعة الإسلامية التي تعبدنا بها رب العالمين نراها تنهى عن أن يهجر المسلم أخاه المسلم من أجل إشاعة المحبة والتوافق والوئام بينهم جميعاً، وتأمر كذلك بصلاة الجماعة ولم تعذر أحداً في التخلف عنها إلا في أشد الظروف، ونهت كذلك أن يكون الرجل وحده، أو أن يبيت وحده لأنه إلى الشيطان أقرب،

([1]) مسند أحمد ٥٠٧/٤٥، برقم (٢٧٥١٤).

([2]) أخرجه الترمذي في سننه ك/البر والصلة، ب/ ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ٣٨٩/٣، برقم (١٩٢٨).

وكذلك تأمر بأن يلزم المسلم الجماعة ويبتعد عن الوحدة والفرقة.....إلى غير ذلك من المواقف والأحاديث التي مفادها وجوب اجتماع واتحاد كلمة المسلمين.

وبنظرة واقعية تأملية عصرية نرى مما لا يدع مجالاً لشك أن السبب الأول في هزيمة الدول العربية الإسلامية وانكسارها ورجوعها إلى ذيل التاريخ إنما هو التفرق والتنازع والاختلاف، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك حيث يشهد أن من أهم أسباب سقوط الدول على اختلاف عقائدها ومللها التفرق والاختلاف، سقطت الخلافة العباسية بعد أن تفرقت الدول الإسلامية في ذلك الوقت، وسقطت الدولة الإسلامية في الأندلس بعد أن أصبحت دويلات متفرقة متناحرة، لا همّ لأحدهم سوى التلقيب بألقاب الملك والسلطان حتى ولو كان على بقعة لا تجاوز دويلة صغيرة، ولم تسقط الدولة العثمانية إلا بعد أن تمزق جسدها إلى أشلاء متناثرة، وبعد أن أغرى الصليبيون الجدد بعض زعماء المسلمين بالانفصال عنها، وأحسنوا اتقان العمل بقاعدة فرِّق تسُد، وها هو العالم الإسلامي اليوم منقسم إلى دويلات متناحرة، تعيش على هامش التاريخ، وتتجرع ألوان الهوان.

إن ما ظفر به أعداء الأمة من سطو واستيلاء لا يرجع إلى خصائص القوة في أنفسهم بقدر ما يعود إلى آثار الوهن والتنازع والتفرق في صفوف أبناء الأمة الإسلامية، فالفرقة تجعل هلاك الأمة بيد أبنائها في سلاسل من الحروب في غير معركة، وانتصارات بغير عدو.

إن الغرب اليهودي النصراني أدرك أن وحدة الأمة الإسلامية خطر عليه، فأوروبا لم تستطع كتمان حلمها في تفكك الاتحاد السوفيتي الذي يمثل خطراً حضارياً، عسكرياً عليها، فساندت بكل قواها حركات التحرر التي قامت بها دويلاته، حتى استراحت من أحد مصادر القلق الذي كان يؤرق راحتها، وبقي لها عدو آخر هو التحدي الذي يمثله العالم الإسلامي.

إن العالم الإسلامي بتفرقه وتنازعه لا يشكل أي هاجس خوف لأحد، لكن العالم الغربي الصليبي يخشى أن يستيقظ المسلمون من نومهم، فيسارعوا إلى الأخذ بأسباب القوة، والعودة إلى الوحدة.

وتجنباً لذلك فإنه يحاول بكل جهد أن يقضي على كل منفذ يمكن أن يسلكوه، فيعود بهم إلى سابق عزهم وسالف مجدهم.

وصدق الله (ﷻ) إذ يقول: {**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**}(١). قال قتادة: الحسنة هي الألفة والجماعة، والسيئة: الفرقة والاختلاف)(٢).

إن أعداء الإسلام يعملون ليل نهار جاهدين على تغذية كل سبب يُغذي الفرقة بين المسلمين، ويكرس تباعدهم، ويزيد من تناحرهم وتنازعهم.

لقد حرص أعداء المسلمين على بذر شجرة الشقاق والاختلاف بينهم، ورعايتها، وإبعادهم عن دينهم، بإثارة الشبهات حوله، ونشرها بينهم، حتى أثمرت وأينعت وأتت أكلها فنشأت الصراعات العقدية بين الفرق المنتسبة إلى الإسلام، وبلغ الخلاف أوجه، فاستُبيحت الدماء، وانتشرت بينهم مقالات التكفير، وهم في الأصل ممن تأثّر بثقافات الأمم المجاورة وأفكارها، ولاسيما بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، حتى كثر الحديث عن دويلة في شمال العراق، وتحقق الانفصال في جنوب السودان، ودويلات في لبنان لأهل السنة تارة وللشيعة تارة أخرى، وأحداث سوريا واليمن وليبيا ما هي ببعيدة عن أذهاننا ولم يغمض لأوروبا جفن إلا بعد تقسيم الوطن العربي إلى دويلات متفرقة متشرذمة مستضعفة، والوطن الإسلامي

---

(١) سورة آل عمران ١٢٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير للإمام/ ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ١/٣١٩، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي.

العربي هو الغنيمة الكبرى بالنسبة للكيان الصهيوني، وقرارات مجلس الأمن بعدم إدانة إسرائيل فيما تفعله بالشعب الفلسطيني أكبر شاهد على كلامنا هذا(١).

وفي المقابل ها هي أوروبا تسعى بكل ما تستطيع لتحقيق أكبر قدر من الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لقد سارعوا بعد أن طحنت حروب ضروس في الحربين العالمية الأولى والثانية، إلى الاستعلاء على الخلافات الشخصية وتناسي أحقاد الماضي، وتجاوز الفوارق العقدية، وصهر حدود الفرقة، لقد اجتمعوا حول عملة مالية واحدة لتكون دعماً لاقتصادهم وتعاونهم واتحادهم ضد الأمة الإسلامية.

(حيث غيّرت أوروبا عملاتها ابتداءً من أول يناير ٢٠٠٢م، حيث قامت ١٢ دولة أوروبية بالتوقف عن استخدام عملاتها القومية للأبد، وقامت بتبني عملة موحدة سميت اليورو، وقد تم تداول العملات المعدنية وأوراق اليورو النقدية جنباً إلى جنب مع العملات الوطنية لتلك الدول أثناء فترة تحول اختلفت اختلافاً بسيطاً من بلد إلى آخر، وفى الأول من مارس٢٠٠٢م أصبحت لتلك العملات المعدنية والأوراق النقدية لليورو قوة الإبراء القانونية الوحيدة في جميع المناطق التي يستخدم فيها اليورو، وتشارك اثنتا عشرة دولة من الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي- البالغ عددهم خمس عشرة دولة - في العملة الموحدة، وهذه الدول هي: بلجيكا، ألمانيا، اليونان، إسبانيا، فرنسا، إيرلندا، إيطاليا، لوكسمبورج، هولندا، النمسا، البرتغال، فنلندا، أما الدانمارك، والسويد، وبريطانيا فهي جميعاً دول أعضاء بالاتحاد الأوروبي ولكنها لا تشارك حالياً في العملة الموحدة)(٢).

هذه هي أوربا وحقيقة أوربا والتي يدين البعض لها بالولاء والوفاء، لكنى أذكر نفسى وإخواني من الدعاة إلى الله تعالى وغيرنا الكثير والكثير ممن يحبون

---

(١) يراجع الرابط التالي: http://www.islamdoor.com/k/wehda.htm

(٢) للمزيد يراجع هذا الرابط : http://www.ahla٢omlat.com/t١٥-topic

ويعشقون الإسلام بما نصت عليه الآية القرآنية من قوله تعالى:{**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**}(١)، يا ليتنا نفهم، يا ليتنا نعرف، يا ليتنا نصدق ونوقن بما أورده ربنا في كتابه العظيم من أن غيرنا لا يحبونا كما يزعمون، لقد حُسمت القضية في الآية سالفة الذكر.

وفى البداية والنهاية ما نصه (ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة وممن توفي فيها من الأعيان: جنكيز خان السلطان الأعظم عند التتار ذُكر أنه لما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق، وضرب لهم في ذلك الأمثال، وأحضر بين يديه نشاباً(٢)، وأخذ سهماً أعطاه لواحد منهم فكسره، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فلم يطيقوا كسرها، فقال: هـذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم، وذلك مثلكم إذا انفردتم واختلفتم)(٣).

إذا تأملت ما جاء في البداية والنهاية بشيء من التدبر والتأمل نجد أن عدو الإسلام والمسلمين يجمع أولاده ويوصيهم بالاتفاق وعدم الافتراق ويضرب لهم مثلاً درسناه في مرحلة الابتدائي لم نفهم معناه وحقيقته إلا في مرحلة كبرنا، حيث أخذ الرجل الكبير في السن المقبل على الموت عوداً من حطب وأعطى لكل واحد من أبنائه واحداً منه وأمره بكسره فكسره، ثم جمع مجموعة من الحطب وضم بعضها إلى بعض وأمر أولاده أن يكسروها فلم يستطع واحداً منهم أن يكسرها، فهنا لفت الأب أنظار أبنائه إلى أهمية الاتحاد والاجتماع والتعاون والاتفاق وعدم التفرق والاختلاف والتنازع، فهو نفس مثل جنكيز خان مع أبنائه ولكن الفرق بينهم

---

(١) سورة البقرة ١٢٠.

(٢) النشاب: النبل واحدته نشابة (ج) نشاشيب يقال تراموا بالنشاشيب، ومنه الناشب أي: الرامي بالنشاب. المعجم الوسيط مادة (نشب) ٩٢١/٢.

(٣) البداية والنهاية ١٢١/١٣.

أن هذا مسلماً – الرجل الكبير –، أما الثاني فهو أحد زعماء التتار وهو السلطان الأعظم عند التتار – كما ذكر ابن كثير – نراه رغم عدم إيمانه وكفره يُوصى أولاده بالاتفاق وعدم التفرق والاختلاف، لأنه كقائد عسكري يعرف حق المعرفة قيمة الاجتماع والاتحاد وعدم التفرق والاختلاف وخاصة في مجالات الحياة كلها عامة، المعارك الحربية خاصة، فأين حكام المسلمين اليوم من مواقف جنكيز خان وهو كقائد مثلهم على علم وإدراك بفنون المعارك الحربية تماماً.

ما سبق إنما هو عرض موجز من قرآن ربنا وسنة نبينا (ﷺ) وواقعنا المعاصر للتدليل على أهمية التوحد والاجتماع وعدم التفرق والاختلاف، وبنظرة دعوية لما سبق نستطيع القول بأن للدعاة هنا دور هام وحيوي لا يقل أهمية عن دور المجاهد الحامل لسلاحه، فهذا يجاهد في معركته ضد العدو، والداعية يجاهد مع مدعويه ليبين لهم ويرشدهم ويعمل على توصيلهم لبر الأمان مع شريعة الإسلام، وليسود الإسلام ومنهجه الحياة كلها من شرقها لغربها كما كان قبل ذلك، فعلى الدعاة إلى الله خاصة هنا عدة أمور عليهم أن يوضحوها لمدعويهم، وذلك حتى يعمل الطرفان – دعاة ومدعوين – على انتصار الإسلام في ربوع المعمورة، وعلى أداء المهمة التي هي من نصيب كل مسلم كل حسب قدرته واستطاعته ألا وهي تبليغ دعوة الله إلى خلق الله، كما قال ربعي بن عامر لرستم قوله المشهورة: (فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله، قالوا وما موعود الله، قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي)(١).

(١) المرجع السابق ٣٩/٧.

هذه هي مهمة المسلمين إلى الله تعالى عامة والدعاة إلى الله خاصة كل حسب قدرته واستطاعته، ودور الدعاة هنا يتمثل في عدة نقاط منها ما يلى([1]):

أولاً: إدراك أهمية وحدة الصف:

على الدعاة إلى الله تعالى أن يبينوا لمدعويهم أهمية وحدة الصف وإكثار الحديث حول ذلك حتى يتأكد هذا المعنى ويستقر في نفوس المدعوين، كما أن امتناع الداعية وطالب العلم المقتدى بهم عن بعض ما يطلب منهم رغبة في وحدة الصف، وتنازلهم عن كثير من حقوقهم الشخصية من أجل ذلك، كل هذا يربي تلامذتهم على الاعتناء بهذا الأصل، ويؤكده لديهم.

ثانياً: تقوية العلاقات والصلات بين الدعاة والمدعوين:

مما يعين الداعية على أداء مهمته أن تتقوى العلاقات والصلات بينه وبين المدعوين، ويمكن أن يتم ذلك من خلال العلاقات الشخصية، والتزاور والاجتماع، وإقامة المشروعات المشتركة، والتعاون على الأعمال الدعوية والاحتسابيه، فما من داعية سلك هذا الطريق إلا وكان النصر والتوفيق واجتماع الناس حوله ليل نهار سمة مميزة له عن غيره من بنى جنسه، فلا يمكن أن يعيش منعزلاً وتؤدى دعوته ثمارها هذا ضرب من الخيال لا يمكن أن يتحقق أبداً، ولو تحقق ما أثمر.

ثالثاً: الموازنة بين قول الحق ووحدة الصف:

إن التوحد والاجتماع وقول الحق وحث المدعوين على ذلك هو غرض الداعية من دعوته، حيث لا يتصور أن يسعى شخص بقصد وإرادة إلى شق وحدة صف الأمة ودعاتها إلا مَنْ في قلبه نفاق وكره لانتصار الدين، لكن عامة ما يحصل إنما هو شعور بالغيرة على الدين، ورغبة في بيان ما يعتقد الشخص بأنه

(١) يراجع هذا الرابط http://www.islamdoor.com/k/٣٥٤.htm للأستاذ/محمد ابن عبدالله الدويش مقال بعنوان (وحدة الصف ضرورة).

هو الحق، وإن كان الغالب أن أمثال هؤلاء لا يسلمون من لعب الشيطان برؤوسهم.

رابعاً: الاعتدال في الحكم على الأخطاء من الدعاة والمدعوين:

إن الداعية بشر مثل غيره له مهمة مسئول أمام الله تعالى عنها وعن تبليغها لمدعويه، ولا يمكن أن يسلم من الوقوع في الخطأ والنسيان لأنه ليس بنبي ولا برسول وإنما هو بشر عادي خصه الله تعالى بشيء من العلم والمعرفة، ومهما بلغ الإنسان من العلم والتقوى والورع فهو عرضة للجهل والهوى والزلل؛ فالبحث عمن لا يزل ويقصِّر من البشر إنما هو بحث عن محال، وهذا ما ينبغي على المدعوين أن يفهموه ويعرفوه جيداً، فكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الشريعة (ﷺ).

خامساً: الفصل بين الدعاة والمدعوين والمواقف الشخصية:

من الأمور التي ينبغي أن يهتم بها الدعاة إلى الله تعالى أن يكون حديثهم عن الحق أو الباطل متجنباً مدعويهم، فليس من حق أي داعية كائناً من كان أن يرمى بحديثه شخصاً بعينه، أو رجلاً بذاتيه، مهما بلغ ما لم يترتب على ذلك مصلحة شرعية، فأمام أعيننا منهج رسول الله (ﷺ) في التوجيه والاصلاح فكثيراً ما كان يقول ما بال أقوام يفعلون كذا، ما بال أقوام ..... وهكذا.

سادساً: انتبه أيها الداعية واحذر من الانشغال بعيوب الناس:

المسلمون عموماً مأمورون بحفظ ألسنتهم وصيانتها عن أعراض المؤمنين، ومن أعظم الآفات أن ينشغل المرء بعيوب الآخرين، وينسي عيوبه فكيف حين يكون من يُنشغل بعيوبهم من أهل الصلاح والعلم والدعوة، وممن يعرفون بالخير في الأمة؟ وقد وضع النبي الكريم القاعدة العامة في خطبة الوداع حينما قال:

(.... إن دماؤكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.....)([1]).

سابعاً: توقير الأكابر:

إن دور الدعاة هنا هام وأساسي فهم المبلغون عن الرسول (ﷺ) دعوته، وهم الذين يضعون الأمور في مواضعها، وهم الذين يحفظون للناس مكانتهم، وهم المطبقون لما جاء الشرع به من وضع الناس في منازلهم، ومن ثَمَّ فالخطأ منهم ليس كالخطأ من غيرهم، لذا كان لزاماً حفظ منزلتهم ومكانتهم لدى مدعويهم، وحين يصدر الخطأ والزلل منهم فالأمر يختلف عمن دونهم وذلك لكون الصغيرة كبيرة في حق العلماء، فقد ثبت عن عائشة أن سائلاً مر بها فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل فقيل لها في ذلك فقالت: قال رسول الله (ﷺ): أنزلوا الناس منازلهم([2]).

جاء في إعلام الموقعين ما نصه: (معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبول كل ما قالوه وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفى عليهم فيها ما جاء به الرسول فقالوا بمبلغ علمهم ..... ولا يعصمونهم ولا يقبلون كل أقوالهم ولا يهدرونها فكيف ينكرون علينا في الأئمة الأربعة مسلكاً يسلكونه هم في الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة ولا منافاة بين هذين الأمرين لمن شرح الله صدره للإسلام وإنما يتنافيان عند أحد رجلين جاهل بمقدار الأئمة وفضلهم، أو جاهل بحقيقة الشريعة التي

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ك/ الحج، ب/حجة النبي (ﷺ) ٢/٨٨٦، برقم (١٢١٨).

(٢) سنن أبي داود للإمام/أبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) ك/الأدب، ب/ في تنزيل الناس منازلهم ٤/٤١١، برقم (٤٨٤٤)، نشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، قال الألباني: ضعيف.

بعث الله بها رسوله، ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين)([1]).

ثامناً: التفريق بين الخلاف في الرأي واختلاف القلوب:

إن أمر الخلاف أمر وارد لا محال فيه، ففي عهد الرسول (ﷺ) الكريم وقع الخلاف بين أصحابه الكرام، ولكن – كما ذكرت سابقاً – إنما هو خلاف في الفروع وليس في الأصول، فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يبينوا للناس أن أمر الخلاف أمر لا غبار عليه وأنه لا بد وأن يحصل الخلاف في الرأي وتتعدد وجهات النظر، لكن من واجب المسلم أن يحذر من أن يؤدي ذلك إلى اختلاف القلوب، وقد حذر النبي (ﷺ) أصحابه من ذلك؛ فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: سمعت رجلاً قرأ آية، وسمعت النبي (ﷺ) يقرأ خلافها، فجئت به النبي (ﷺ) فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)([2]) ، وقديماً قالوا الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

فعلى الدعاة والمدعوين في المجتمع الإسلامي كله أن يعرف أنه لا بأس من الخلافات الواردة يومياً في حياتنا المعاصرة، سواء أكانت خلافات مذهبية فهذا شافعي، والثاني حنفي، والثالث مالكي، والرابع حنبلي، هذا يطول ثيابه وهذا يقصر ثوبه، هذه تنتقب والأخرى تتحجب أهم شيء عدم إظهار شيء من عورة المرأة .....إلى غير ذلك من الخلافات، السياسية كانت، أو الاقتصادية، أو

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين للعلامة/ ابن قيم الجوزية ٢٨٣/٢، نشر: دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد.

(٢) أخرجه البخاري ك/ أحاديث الأنبياء، ب/ حديث الغار ١٧٥/٤، برقم (٣٤٧٦).

الاجتماعية، أو غيرها ..... التي أصبحت في واقع الأمة الإسلامية الآن أصول أدت بهم إلى التقسيم والتنازع والشقاق وهو ما حذرت منه الآية القرآنية محل حديثنا في مبحثنا هذا "**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ".

على الدعاة إلى الله تعالى أن يبثوا في أذان المدعوين أنه لا بد من استيعاب تعدد الآراء والاجتهادات فيما يسع فيه ذلك، وأن نعمل جميعاً في ضوء ما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، وأن نتجاوز مرحلة الخلاف والتنازع هذه إلى استيعاب تعدد المدارس الفكرية والثقافية المعاصرة كما تعددت المدارس الفقهية، ولا يمكن أن يكون الناس نسخة واحدة كما قال الله تعالى:{**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** .....}([1])، فالداعية الناجح هو الذى يسعى لتذويب ما لا يمكن تذويبه من الفوارق الفكرية بين طبقات المجتمع الذى يقيم فيه، ويظهر للجميع أن خلافاتنا لا يمكن لها أن تؤثر على ما في قلوبنا من حرصنا على ما ننتفع به في دنيانا وآخرتنا، وأننا جميعاً نستظل بظل الإسلام الذى تعبدنا رب العالمين (ﷻ).

تاسعاً: فتح مجال الحوار بين الدعاة ومدعويهم:

إن مما يقلل الاختلاف والتنازع بين طبقات المجتمع رجاله ونسائه صغاره وكباره مسلمه وغير مسلمه إنما هو فتح مجال الحوار والنقاش والاستماع للطرف الأخر، وأن يسود بين شباب الصحوة ودعاتها جو الحوار، وبدون الممارسة العملية سيبقى الحديث عن آدابه وأخلاقياته حديثاً نظرياً.

ومن تأمل واقع السابقين من علمائنا رأى ذلك جلياً، حيث كانوا يختلفون ويسود بينهم الحوار والمناظرة والجدل بالتي هي أحسن، حتى قال ابن تيمية: (كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله

(١) سورة هود ١١٨،١١٩.

تعالى في قوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}(١)، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة من أن يقع بعضهم فى عِرض بعض وأخوة الدين، نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع)(٢).

هذا قليل من كثير من بيان وتفصيل لدور الدعاة إلى الله تعالى في شأن التوحد والاجتماع لا التفرق والاختلاف مع مدعويهم، والذى لو التزمنا به كان سبباً من أسباب انتصارنا على أعدائنا، ولو تركناه خلف ظهور وكان للخلاف والتنازع والشقاق أثر بيننا حدث عكس النصر ألا وهي الهزيمة وهى ما حذرنا ربنا منها في سياق وسيلتنا الرابعة ألا وهي (الاجتماع لا الاختلاف والتوحد لا التفرق) والذى دل عليه قول الله تعالى: "**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**" وتذييل الآية هو مبحثنا الخامس الذى نعيش فى رحابه بإذن من الله تعالى فى الصفحات القادمة.

(١) سورة النساء ٩٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٤/١٧٢.

المبحث الخامس
"معية الله مع الصابرين"

وصلنا إلى وسيلتنا الخامسة من وسائل النصر على الأعداء والتي يمثلها قول الله (ﷻ) رحاب آيتنا المباركة:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**} وشاهدنا فيها التذييل الوارد فى نهايتها ألا وهو الأمر بالصبر فى قوله تعالى: {..... **وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } وانطلاقاً من هذا التذييل عنونت لهذا المبحث بعنوان "**معية الله مع الصابرين**".

ولو تأملنا هذه المعية من الله تعالى لعباده لوجدنا أنها كثيراً ما ذكرت فى القرآن الكريم، فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى:{**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**}(١)، ومرة ثانية نرى معية الله تعالى مع المؤمنين من خلال قوله تعالى {..... **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**}(٢)، وآيتنا التي معنا ذيلها ربنا بقوله: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} إلى غير ذلك من الآيات التي فيها الدلالة الصريحة على المعية الإلهية من الله تعالى لعباده، أو الآيات التي فيها دلالة غير صريحة على ذلك.

وعن المعية الإلهية التي ينالها العبد بكونه عبداً لله تعالى يحدثنا العلامة الشعراوي بقوله: (وهذه تتمة الصورة التي يريدنا الله أن نلتفت إليها، فقد أمرهم الله أن يثبتوا في القتال، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد، خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديد البأس، إذن ففي المعركة يريد الله

(١) سورة البقرة ١٩٤.

(٢) سورة الأنفال ١٩.

(ﷻ) من المؤمنين الثبات في القتال وعدم الفرار، وذكر الله كثيراً، وعدم التنازع حتى لا تضيع قوة المؤمنين، ويوصيهم سبحانه بالصبر، لأن عدوهم قد يكون عنده صبر وجلد، فلا بد أن يمتلك المؤمن رصيداً من الجلد والصبر؛ يُمَكّنه من هزيمة عدوه، ..... وعلى كل مؤمن أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذي انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه، فلا تخور نفسه؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوي؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال، تماماً كالولد الصغير، إذا مشى في الشارع وحده قد يعتدي عليه الأولاد الآخرون، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد، فما بالك بالإنسان الذي هو مع ربه؛ لذلك يوصي الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه في معية ربه وأن أي حدث ضار في الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه..... وحين يكون المسلم في معيّة الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجيء أبداً، والمثال هو رسول الله (ﷺ) وأبو بكر (رضي الله عنه) في الغار، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر (رضي الله عنه) فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، هذا كلام منطقي مع النظرة المادية، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله (ﷺ) وأبا بكر، وأراد رسول الله (ﷺ) أن يطمئن أبا بكر وينفي عنه ما جاء في باله من خوف أن يراهما الكفار، كان المفروض أن يقول رسول الله (ﷺ): يا أبا بكر اطمئن، إنهم لن ينظروا داخل الغار، ولكن رسول الله (ﷺ) قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وفي ذلك قال الإمام أحمد عن أنس إن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي (ﷺ) ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وما دام الله ثالثهما تكون المعيّة موجودة،

وإذا كنت في معيّة من لا تدركه الأبصار، أتدركك الأبصار؟، طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم)([1]) فاللهم اجعلنا في معيّتك دائماً.

وإذا نظرنا إلى تلك المعية نجد أن العلماء قسموها إلى أقسام متنوعة بحسب الاعتبار والنظر، ويمكن حصرها في ثلاثة اعتبارات:

الأول: اعتبار العموم والخصوص.

الثاني: اعتبار تعلقها بالذات والفعل.

الثالث: اعتبار تعلقها بوصف أو شخص.

الاعتبار الأول: العموم والخصوص.

قسم أهل العلم المعية الإلهية من حيث العموم والخصوص إلى قسمين:

القسم الأول: المعية العامة ويراد بها: علم الله التام بجميع خلقه، واطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، ولأنها تشمل الخلق جميعاً مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، سُميت معية عامة، مثل قوله تعالى:**{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }**([2]).

القسم الثاني: المعية الخاصة.

وهي قدر زائد على معنى المعية العامة، إذ تدل مع العلم والإحاطة، على معنى النصرة والحفظ والتأييد والتوفيق، ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسياق الذي وردت فيه، وهذه المعية تكون لمن ذكرت له، ولهذا سُميت معية خاصة،

---

(١) تفسير الشعراوي ٨/٤٧٣٠.

(٢) سورة المجادلة ٧.

مثل معية الله تعالى للصابرين، ومعيته للمتقين ونحو ذلك، مثل قوله تعالى:{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**}(١).

الاعتبار الثاني: تعلقها بذات الله تعالى أو فعله.

وتنقسم المعية الإلهية باعتبار تعلقها بذات الله (ﷻ) أو فعله إلى قسمين:

القسم الأول: صفة ذاتية لله تعالى، وهي المعية العامة؛ لأنه تعالى لم يزل مع خلقه علماً وإحاطة وقدرة وسلطانًا.

القسم الثاني: صفة فعلية، وهي المعية الخاصة؛ لأنها معية تابعة لمشيئة الله تعالى، متعلقة بسبب، فإذا وجد السبب المقتضي لها تحققت، مثل: معية الله للصابرين والمتقين، تتحقق إذا وُجد الصبر والتقوى فيهم، فيكون الله معهم حفظاً وتوفيقاً وتأييداً ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسبب المقتضي لها.

الاعتبار الثالث: تعلقها بوصف أو بذات.

تنقسم المعية الإلهية باعتبار كونها تتعلق بوصف أو بذات، إلى قسمين:

القسم الأول: معية تتعلق بوصف ما، وهي معية إلهية خاصة بمن قام به وصف خاص، مثل من تحقق فيه وصف التقوى أو الإحسان، كقوله: {**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**}(٢).

القسم الثاني: معية تتعلق بذات معينة، وهي معية إلهية خاصة بذات معينة من خلقه (ﷻ) مثل قوله تعالى:{ ..... **لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** .....}(٣) فهي معية خاصة بالنبي (ﷺ) وأبي بكر (رضي الله عنه)، ومثل قوله تعالى في شأن موسى وهارون (عليهما السلام): {**قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**}(٤).

---

(١) سورة البقرة ١٥٣.

(٢) سورة النحل ١٢٨.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

(٤) سورة طه٤٦.

وأخص معية من هذا النوع معية الله تعالى لموسى (عليه السلام) المشار إليها في قوله تعالى: {**قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**} وهذا النوع من المعية هو أخص أنواع المعية الإلهية، لأنها معية مخصوصة بذات معينة، ولهذا فلم تثبت في القرآن الكريم إلا لهؤلاء الأربعة الكرام: محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة السلام، وأبو بكر (رضي الله عنه)، ونلحظ أن هذا القسم بنوعيه يتعلق بالمعية الإلهية الخاصة دون المعية العامة؛ لأنها معية خاصة بمن هي له، سواء كان ذاتاً معينة أو صفة ما)([1]).

هذه هي حقيقة المعية الإلهية كما ذكرها علماؤنا الأجلاء، ولو تأملنا فيها لوجدنا أن بعضاً منها يخص صنفاً خاصاً من عباده ألا وهي المعية الخاصة والتي تعنى النصرة والحفظ والتأييد والتوفيق، ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسياق الذي وردت فيه، وهذه المعية تكون لمن ذكرت له، ولهذا سُميت معية خاصة، مثل معية الله تعالى للصابرين، ومعيته للمتقين ..... الخ، وهذه المعية هي التي تحقق النصر من الله لعباده المؤمنين على أعدائه والتي قصدها ربنا (عز وجل) حينما قال:{**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**}، والمأمور به هنا من قِبل الله لابد وأن يتحقق حتى يتحقق النصر فلو تحقق الصبر من المؤمنين لتحقق النصر من الله تعالى لعباده المؤمنين.

ولو نظرنا في القرآن الكريم بعين تأملية لوجدنا أن الله تعالى أعد لعباده الصابرين منازل ليست لأحد سواهم، هذه المنازل هي ما تحدثت عنه آيات سورة البقرة حيث قال الله تعالى:{..... **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ**

(١) المعية الإلهية فى ضوء القرآن الكريم معانيها ودلالتها د/ ناصر بن محمد عبدالماجد ص٣٨،٣٩ مجلة الدراسات القرآنية، العدد (١٠) ١٤٣٣هـ، (بدون).

الْمُهْتَدُونَ}([1]) ففي هذه الآيات نلحظ أن الله تعالى خص الصابرين بثلاثة أشياء وهى: الصلاة عليهم، ورحمته بهم، وهدايته لهم دون غيرهم، ونلحظ كذلك أن الله تعالى لم يقل معكم بل قيد معيته لمن كان الصبر لهم خلقاً وصفة، فالصابرون تتحقق لهم معية الله بتوفيقه ومعونته وتسديده، بذلك تهون عليهم المشاق، وتزول عنهم المكاره ويسهل عليهم كل صعب وعظيم، وهي منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن لهم فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها شرفاً وفضلاً.

ويتحدث صاحب الظلال عن هذه الوسيلة فيقول: (أما الصبر فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة أية معركة كانت في ميدان النفس أم في ميدان القتال، وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح)([2]).

وإذا نظرنا إلى هذه المادة (صبر) لوجدنا أنها ذُكرت بين ثنايا صفحات القرآن الكريم ما يقرب من ثلاث وتسعين مرة بجميع مشتقاتها([3])، ومعظم هذه المواد – صبر ومشتقاتها – وردت بعد تعب وعناء ومشقة لحقت بالرسول الكريم (ﷺ) أو إخوانه من الأنبياء أو أتباعه من المؤمنين، فقد وردت بصيغة الفعل الماضي فى قوله تعالى:{**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**}([4])، وبصيغة المضارعة فى قوله تعالى:{.....**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**}([5])، وبصيغة الأمر فى قوله تعالى:{**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى**

(١) آيات ١٥٥،١٥٦،١٥٧.

(٢) في ظلال القرآن ١٥٢٩/٣ (بتصرف).

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (صبر) ٣٩٩ وما بعدها.

(٤) سورة الشورى ٤٣.

(٥) سورة يوسف ٩٠.

يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}(١)، وبصيغة الجمع من خلال قول سيدنا شعيب لقومه:{..... **فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**}(٢)، وبلفظ جمع المؤنث السالم فى قوله:{..... **وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ** .....}(٣)، وكذلك جمع المذكر السالم فى قوله:{.....**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**}(٤)، وبصيغة المصدر فى قوله تعالى:{**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا**}(٥)، وباسم الفاعل من خلال وصف الله تعالى لسيدنا أيوب (عليه السلام) فى قوله تعالى:{.....**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**}(٦).

إلى غير ذلك من المواطن القرآنية من خلال عرضه للفظة صبر وما اشتق منها.

ولو تأملنا عرض القرآن الكريم للصبر ومشتقاته لوجدنا أن هذا العرض تنوع وتنوع، فعلى سبيل المثال يعلق الله تعالى الفلاح بالصبر من خلال قوله تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}(٧)، ثم يخبر الله تعالى عن مضاعفة الأجر مرتين لطائفة من خلقه تعالى هي طائفة الصابرين من خلال قوله تعالى:{**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ**

(١) سورة يونس ١٠٩.
(٢) سورة الأعراف٨٧.
(٣) سورة الأحزاب ٣٥.
(٤) سورة الزمر ١٠.
(٥) سورة المعارج ٥.
(٦) سورة ص ٤٤.
(٧) سورة آل عمران ٢٠٠.

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}(١)، ويجعل الله تعالى الصبر عوناً وعدة للمطلوب ويأمر بالاستعانة به مقروناً بالصلاة فيذكر (ﷻ) ما نصه:{**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ**}(٢)، وفى رحاب سورة آل عمران نرى الله تعالى يعلق النصر بالصبر والتقوى فيقول:{**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**}(٣)، ثم نلاحظ في الآخرة وبالتحديد عندما يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ يجعل الله تعالى سلام الملائكة سببه الصبر فيقول تعالى فى سورة الرعد:{**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**}(٤)، وكذلك نلحظ أن الإنسان ييأس من رحمة الله تعالى إلا طائفة من خلق الله تعالى هم أهل الصبر فيذكر الله تعالى قوله:{**إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**} (٥) ففي الآية نرى أن الله تعالى رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح، وهذا دأب الصابرين في كل زمان ومكان ولولا أن لهم هذه المكانة والمنزلة ما جعل الله تعالى معيته مع هذه الطائفة من خلقه (ﷻ)، ويجعل الله تعالى محبته للصابرين من عباده فنراه يقول:{.... **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**}(٦)، وفى موضع آخر وليس بالأخير نرى أن الله تعالى يحكم بالخسران التام على كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ولم يكن من أهل الحق والصبر فيقول في العصر:{**وَالْعَصْرِ إِنَّ**

(١) سورة القصص ٥٤.
(٢) سورة البقرة ٤٥.
(٣) سورة آل عمران ١٢٥.
(٤) ٢٣،٢٤.
(٥) سورة هود ١١.
(٦) سورة آل عمران ١٤٦.

الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}(١)، ولقد علق الإمام الشافعي على هذه السورة بقوله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم (٢).

ومن خلال كل ما سبق نرى أن معية الله تعالى مقرونة دائماً بالصبر مع الصابرين ليل نهار فمع سيدنا أيوب قال الله تعالى:{**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**}، والآمر بالصبر والمنادى عليهم هو الله تعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}، وفى حالة الإمداد بالملائكة يذكر الله تعالى أنه هو من يتولى إرسال الملائكة {**يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**} إلى غير ذلك من المواضع القرآنية التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن المعية الإلهية من الله تعالى لعباده المؤمنين الصابرين.

فالمعية الإلهية مع الصابرين في الحرب وغير الحرب وعند لقاء العدو والتحام الصفوف، لأن شرط النصر الصبر، والفرار كبيرة من الكبائر حذر الرسول الكريم (ﷺ) منه حيث ورد عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)(٣)، وقد أثنى الله تعالى على هؤلاء الصابرين في

---

(١) ١، ٢، ٣.

(٢) التفسير المنير ٣٠/٣٩١.

(٣) أخرجه البخاري ك/الحدود، ب/رمي المحصنات ٨/١٧٥، رقم (٦٨٥٧)، ويعلق د/ مصطفى البغا فيقول: (التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار، والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة، مأخوذ من زحف

ساعة القتال وعندما تضطرب أمور المعركة وينفرط عقدها تكون الحاجة إلى الصبر أعظم وأشد.

إن (التكليفات كلها تعطي مشقات على النفس، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر، ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون، ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة،{.....**وَحِينَ البأس**} أي حين الحرب عندما يلتقي المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل، إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور: في البأساء، أي في الفقر، وفي المرض، وفي الحرب مع العدو، صابر في كل هذه الأمور وسبب صبر المقاتل هنا شعوره الداخلي بكون المعية الإلهية معه ليلاً ونهاراً)(١).

وبعد ما مر من صفحات مع المعية الإلهية وبيان مدى ملازمتها للصابرين، ننظر في موقف الدعوة والدعاة من المعية الإلهية التي منّ الله تعالى بها على عباده الصابرين، ولو لم تكن لها هذه الدرجة والمنزلة ما جعلها الله تعالى وسيلة من وسائل النصر على أعدائه، وذلك لكون طريق الدعوة إلى الله طويل وشائك، محفوف بالمخاطر والخطوب، وهو ابتلاء من الله تعالى لعباده المؤمنين لبيان صدقهم وثباتهم على الحق، وقد كان الرسل أول من سلكوا هذا الطريق بصعوبته وشدته وذلك باعتبارهم الدعاة الأُول إلى أقوامهم، وتعرضوا فيه إلى الأذى والعذاب من أقوامهم وملوكهم، والرسل أشد الناس بلاء ومعاناة من غيرهم، وذلك لأنهم قادة الدعوة إلى الله والقدوة في ذلك، لذا كان اختبارهم وابتلاءهم أشد وأصعب وهذه المواقف وأمثالها في أمس الحاجة إلى الصبر الذى يلقيه الله تعالى على قلوب

الصبي إذا مشى على مقعدته. (١٠/٤) رقم الحديث (٢٧٦٦) نفس نص الحديث الوارد ذكره أعلى.

(١) تفسير الشعراوي ٧٤٢/٢ (بتصرف).

أنبيائه وأصفيائه.

وما الحصار الذي فُرض عليه (ﷺ) من قِبل المشركين في أول الدعوة في مكة إلا نوع من الابتلاء الشديد في طريق دعوته إلى الله، وكذلك الهجرة إلى الطائف واستقبال أهلها له بالطرد ورميه (ﷺ) بالحجارة وسوء الكلام كان نوعاً من الابتلاء في طريق الدعوة، ولولا المعية الإلهية مع رسولنا الكريم (ﷺ) ما بلغ دعوة ربه (ﷻ) لأنه ما أعانه على تبليغ دعوته إلا الصبر الذى ألقاه الله تعالى في قلبه.

ولم تكن تلك المعاناة مقتصرة على شخص الرسول (ﷺ) فحسب، بل كانت عامة على المؤمنين، فليس بخاف على المؤمنين ما حل بآل ياسر في بداية الدعوة إلى الله وكيف تعذبوا وقتلت سمية (رضي الله عنها) وكذا زوجها ياسر (رضي الله عنه) بحراب المشركين، وما ناله بلال (رضي الله عنه) من تعذيب وتنكيل على يدي أمية بن كعب في صحراء مكة، وأخيرًا الهجرة النبوية التي كانت أشد وطأة على المؤمنين عندما تركوا الديار والأهل والمال وخرجوا خفية بدينهم إلى المدينة النبوية، لم يحملوا معهم إلا ما يسد رمقهم، كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الله فهؤلاء هم الدعاة إلى الله تعالى حقاً الذين تحلوا بالصبر ومعية الله معهم في ليلهم ونهارهم في سفرهم وترحالهم في قيامهم وجلوسهم جعلوا الصبر هو زادهم الذى يتزودون به كبديل عن طعامهم وشرابهم، يوضح لنا هذه المواقف وأمثالها دعاة الإسلام في بداية نشأته سيدنا خباب بن الأرت (رضي الله عنه) حينما يقول: شكونا إلى رسول الله (ﷺ) وهو متوسد ببرد له في ظل الكعبة – قلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه . ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر

حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)([1]).

إن هذا الأسلوب في الطلب من خباب (ﷺ) حين قال للرسول: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يُوحي بما وراءه، وأنه صادر من قلوب قد أتعبها العذاب، وأنهكها الجهد، وهدتها البلوى، فهي تلتمس الفرج العاجل، وتستبطئ النصر فتستدعيه، ومع ذلك احمر وجهه (ﷺ) وقعد من ضجعته، وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القوي المؤثر، ثم خاطبهم بأسلوب الداعية الذى يريد لفت أنظار مدعويه دون ترك أثر سلبي لدى نفوسهم مذكراً لهم بمن قبلهم والفرق بين السابقين واللاحقين في الصبر وتحمل المشاق والشدائد بقوله: (ولكنكم تستعجلون)، لأنه (ﷺ) يريد أن يُربي أصحابه على أن قبل النصر البلاء والصبر، فالرسل أتباعهم يُبْتلون ثم تكون لهم العاقبة، قال الله تعالى:{**حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**}([2]).

إن من يتأمل ذلك الموقف الذي كان يعيشه خبّاب بن الأرت (ﷺ) يدرك أن له من المبررات الكثير، لكن النبي (ﷺ) كداعية يريد أن يُربي الصحابة كمدعوين ومن يأتي بعدهم على الصبر والثبات وعدم الاستعجال وأن الله تعالى مع المؤمن الصادق، وعليهم التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، الذين تحملوا الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله، وضرب لهم الأمثلة في ذلك، كما كان (ﷺ) يملأ قلوبهم بالتعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ك/ المناقب، ب/ علامات النبوة في الإسلام ١٣٢٢/٣، رقم (٣٤١٦)، وفى رواية أخرى للإمام أحمد في مسنده نفس الألفاظ مع خلاف في قوله (حتى يسير الراكب من المدينة إلى حضرموت) ١٩١/٤٥، رقم (٢٧٢١٧).

(٢) سورة يوسف١١٠.

الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا، أليس قد قال الله تعالى: {**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ**}(١).

وهذه السُنَّة بقيت ماضية على دعاة الحق بعد جيل الصحابة إلى يومنا هذا، وما البلاءات والمجازر والمآسي التي تنزل بالمسلمين في أرجاء الأرض إلا امتداد لذلك الطريق المعادي لله ورسله وأتباعهما عبر التاريخ، فها هي قوى الكفر والشرك والإلحاد رغم تفرقها فيما بينها في أشياء كثيرة تتحد اليوم على جسد أمتنا وتقتل إخواننا وأهلينا وتشردهم وتعذبهم وتأكل من خيرات بلادنا وتمتص ثرواتنا بشتى الوسائل كل ذلك لأن هذه الأمة تؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد (ﷺ) نبياً ورسولاً وصدق الله تعالى حيث قال: {**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**}(٢).

فالداعية معرض لكل أنواع المواجهة سواء كانت تعذيباً للجسد حسياً كان أو معنوياً أو إتلافاً للأموال، لأن أعداء الدين لا يألون جهداً في تسخير كل ما أُوتوا في سبيل وقف الزحف الإسلامي والحد من انتشاره، وما على الدعاة هنا والمدعوين إلا أن يتحلوا بالصبر قولاً وفعلاً وسلوكاً، وذلك لكون الصبر إحدى صفات الداعية الناجح والمدعو الذى يلتزم بمنهج سيده وحبيبه سيدنا محمد (ﷺ)(٣).

---

(١) سورة القصص ٦٠.

(٢) سورة الصف ٨.

(٣) بعض العبارات مقتبسة من هذه السلسلة أحاديث في الدعوة والتوجيه "حديث عجباً لأمر المؤمن" دراسة حديثية دعوية إعداد أ.د/ فالح بن محمد بن فالح الصغيّر ص٣٣:٣٥، طبعة دار ابن الأثير، ١٤٢٤هـ.

أيها الدعاة اصمتوا أيها المدعوين اصبروا فالصبر على ما تلاقونه في سبيل دعوتكم، – رغم أنها واضحة المعالم – وما يعتريكم خلال مسيرتكم الدعوية، لهو الأجدى وهو المناسب لهذه المواقف، حيث إنه السلاح الأقوى في هذا الطريق، وهو الزاد الذي تحملونه وتبلغونه عن الله (ﷻ).

أيها الدعاة أيها المدعوين لقد حثنا الرسول (ﷺ) كثيراً على التحلي بالصبر في طريق الدعوة إلى الله، حتى تؤتي الدعوة أُكلها وتظهر نتيجتها، كما علّمنا أن أركان هذه الدعوة لن تثبت ولن تقوم لها قائمة بالتسرع والاندفاع العشوائي لمواجهة العقبات، لذلك ذكر (ﷺ) في كثير من المواقف وخاصة يوم حنين ضرورة الصبر والتصبر أثناء تبليغ رسالة الله إلى عباده، فمما رُوي في ذلك عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن أناساً من الأنصار قالوا: يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله (ﷺ) يعطي رجالاً من قريش، المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس بن مالك: فحدث ذلك رسول الله (ﷺ)، من قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله (ﷺ)، فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا، يا رسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله (ﷺ): فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أتألفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله؟ فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فقالوا: بلى، يا رسول الله، قد رضينا، قال: فإنكم ستجدون أثرة شديدة، فاصبروا

حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض، قالوا: سنصبر)(١).

إن الدعوة إلى الله تعالى تحتم بالضرورة صبر الداعية على ما يلاقيه في دعوته، فإنه يأتي الناس بما لا يشتهونه ولا يألفونه، وبما يخالف ما وجدوا عليه آباءهم، فلذلك يقاومون الدعوة بكل ما أوتوا من قوة، ويوصلون الأذى بالداعية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

على الدعاة إلى الله تعالى أن يفقهوا أن طريق الدعوة إلى الله طريق طويل واستبطاء النصر يحتاج إلى صبر، وليس أي صبر إنما صبر كصبر أيوب (عليه السلام)، وكصبر سيدنا نوح على قومه في تبليغ دعوته، من أجل هذا خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى:{**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**}(٢)، وقال تعالى في الآية قبل الأخير من سورة يوسف:{**حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**}(٣).

اعلموا أيها الدعاة أن معية الله معكم فلتصبروا ولتحتسبوا ولتبلغوا دعوة نبيكم (ﷺ)، التي نلتم شرف الانتساب إليها، من حيث كونكم من أمته (ﷺ)، فاللهم ألحقنا به على خير يا رب العالمين.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ك/ الزكاة، ب/ إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه ٢/٧٣٣ رقم (١٠٥٩).

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

(٣) ١١٠.

الخاتمة

ونسأل الله تعالى حسنها –

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ،،،،،،،

أما بعد

من المتفق عليه أن كل زرع لا بد له من ثمر يُجنى في نهايته، فمن زرع خيراً فلا يجنى إلا الخير، ومن زرع غير ذلك فما زرعه يحصده، وهكذا الإنسان في حياته الدنيوية يزرع الخير ليجني الخير يوم لقاء الله تعالى بإذنه (ﷻ)، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بلقب سليم.

وها قد آن الأوان ليجني هذا البحث ثماره التي يمكن لنا أن نستنبطها والتي تتمثل فى أهم **النتائج** فمن ذلك ما يلى:

أولاً: وسائل النصر في القرآن الكريم كثيرة وكثيرة ما على المسلمين إلا مراجعة القرآن الكريم والتدبر والتأمل فيه سيجدوا كل شيء فيه، فلا فوز ولا تقدم للأمة الإسلامية إلا بمعاودة الدرب للقرآن ومراجعة سيرة سيدنا رسول الله (ﷺ)، والصحابة الكرام، والصالحين من عباد الله المؤمنين المخلصين في دعوتهم لله تعالى، فبمثل هذه المراجعات يتحقق النصر الذى يرجوه كل مسلم في حياته.

ثانياً: من وسائل النصر على الأعداء الثبات في أرض المعركة أمام العدو، ومستحيل ثم مستحيل أن يتحقق النصر في لحظات الفرار، ولذا كان الثبات أمام العدو هو الوسيلة الأولى من وسائل النصر على الأعداء، والثبات ليس قاصراً على أرض المعركة وحدها، وإنما الثبات في معارك الحياة كلها المعارك الحسية

وكذلك المعارك المعنوية التي تنشأ من خلال المواقف التي يعيشها الداعية في حياته اليومية.

ثالثاً: ذكر الله تعالى وأهميته في الحياة الخاصة والعامة للأمة الإسلامية، فهو المقرب للعبد من ربه جل وعلا، وبذكر الله (ﷻ) ينجلي الصدأ الذى علق بقلوب المؤمنين، من أجل هذا وغيره جاءت الوسيلة الثانية مؤكدة بقوله كثيراً، حيث علق الله تعالى الفلاح على الذكر الكثير كما نصت الآية الكريمة على ذلك، لأن المقام هنا في أرض المعركة لا يستدعى التراخي في الذكر، وذلك لكون المسلم المجاهد في هذا الموقف بين أمرين لا ثالث لهما إما النصر وإما الشهادة مصدق ذلك قوله: {**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**}(١).

رابعاً: على الدعاة إلى الله تعالى أن يبينوا ويوضحوا لمدعويهم أن الطاعة المطلقة لله وللرسول ليس للعقول تحكيم فيها، وإنما دأب المسلم دائماً السمع والطاعة لله وللرسول ولأئمة المسلمين مادامت طاعتهم أساسها المنهج الرباني المحمدي، وقد ظهرت ثمرة الطاعة الإيجابية في غزوة بدر، كما ظهرت سلبية المخالفة لله ولرسوله في غزوة أُحد كما سبق بيانه.

خامساً: التحذير من التفرق والاختلاف والتنازع فهذا هو سبب هلاك ودمار الأمم كلها فما بقيت أمة وهى متفرقة أو مختلفة فيما بينها أبداً، من أجل هذا جاء الأمر بعدم التنازع والاختلاف بعد الأمر بالطاعة مباشرة، وكما ظهر دور الدعاة سابقاً يظهر هنا أكثر وضوحاً في تحذير الأمة من التفرق والاختلاف حيث إنه سبب هلاكهم والقضاء عليهم.

سادساً: الصبر والمعية الإلهية للصابرين هي الوسيلة الخامسة من وسائل النصر على الأعداء حيث إن كل الوسائل السابقة تحتاج إلى الصبر والمصابرة،

---

(١) سورة التوبة ٥٢.

فلولا الصبر والمصابرة على الغير ما بُلغت الدعوة المحمدية، وما بلغت أرجاء المعمورة كلها من شرقها لغربها، وهنا يظهر دور الدعاة جلياً واضحاً من خلال الصبر على المدعوين وذلك لأن العقول ليست على درجة واحدة فمن الناس من يستجيب من أول مناقشة، ومنهم من يجادل بعض الشيء، وفريق ثالث مكابر معاند.....وهكذا فليس للدعاة سلاح هنا إلا الصبر والمصابرة، ويكفيهم أن الله تعالى معهم كما ختمت الآية المباركة.

هذه بعض النتائج التي يمكن لنا أن نقف معها في رحاب بحثنا هذا في ضوء سورتنا المباركة، والتي نسأل الله تعالى أن يجعلنا أهلاً لهذه الوسائل وغيرها إنه ولي ذلك والقادر عليه، وما مر من صفحات إن كان فيه توفيق فمن الله العلي القدير، وإن كان فيه تقصير وتفريط فمن نفسى ومن الشيطان وحسبي أنني بشر أصيب وأخطأ ما لم يحمني القدر.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

كتبه أبو حامد وفاطمة

الدكتور

محمد حامد محمد سعيد

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين جامعة الإنسانية

بولاية قدح ماليزيا

أهم المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين للإمام/ أبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، نشر: دار الفرقان، عمان الأردن، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ تحقيق: د/ شرف محمود القضاة.
- أحاديث في الدعوة والتوجيه "حديث عجباً لأمر المؤمن" دراسة حديثية دعوية إعداد أ.د/ فالح بن محمد بن فالح الصغيِّر، طبعة دار ابن الأثير، ١٤٢٤هـ، (بدون).
- أحكام القرآن للإمام/ ابن العربي (ت٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه/محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.
- إحياء علوم الدين للإمام/ أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، نشر: دار المعرفة، بيروت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للإمام/ أبى السعود محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أُسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام/عز الدين بن الأثير (ت٦٣٠هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، بيروت، لبنان، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين للعلامة/ابن قيم الجوزية، نشر: دار الجيل، بيروت،١٩٧٣م، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان للإمام/محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، نشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.
- إكمال الأعلام بتثليث الكلام للإمام/ محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني (ت ٦٧٢هـ)، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي.
- الإيضاح والتبيين لبعض صفات المؤمنين للشيخ/عبدالعزيز الراجحي، (بدون).
- البرهان في علوم القرآن للإمام/أبي عبد الله بدر الدين محمد الزركشي (ت٧٩٤هـ)، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، نشر: دار إحياء الكتب العربية تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- بيان المعاني للشيخ/عبد القادر بن ملّا العاني، مطبعة الترقي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ– ١٩٦٥م.
- تاج العروس من جواهر القاموس للإمام/محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، نشر دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.
- التحرير والتنوير للإمام/محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (ت ٣٩٣هـ)، نشر: الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤هـ.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام/أبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت١٣٥٣هـ)، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) للعلامة/محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ)، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

- التفسير القرآني للقرآن للأستاذ/عبدالكريم الخطيب، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة.
- التوقيف على مهمات التعاريف المؤلف/محمد عبدالرؤوف المناوي، نشر: دار الفكر المعاصر, دار الفكر، بيروت, دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: محمد رضوان الداية.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للإمام/أبى عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن حمد آل سعدي (ت ١٣٧٦هـ)، نشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن للإمام/أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم للإمام/ أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، نشر: دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت.
- جامع العلوم والحكم للإمام/ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه للإمام/ محمد ابن إسماعيل أبو عبدالله البخاري المعروف بصحيح البخاري، نشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر.

- الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى د/سعيد بن على القحطاني، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- خواطر الشعراوي للإمام/ محمد متولي الشعراوي، نشر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
- دراسات فى الدعوة والدعاة للإمام العلامة/محمد الغزالي، ط:حسان، القاهرة ،١٩٨١م .
- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية د/محمد الراوي، ط: مكتبة الرشيد الرياض، الطبعة الثالثة،١٤١١هـ .
- دلائل النبوة للإمام/ إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، نشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق: محمد محمد الحداد.
- الرسول القائد تأليف/محمود شيت خطاب، طبعة مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م.
- روح البيان للإمام/ إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (ت ١١٢٧هـ)، نشر دار الفكر، بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير للإمام/ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢٢هـ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
- سنن أبي داود للإمام/أبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، نشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

- سنن الترمذي للإمام/محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، تحقيق: بشار عواد معروف.
- السياسة الشرعية فى إصلاح الراعي والرعية للإمام/ ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، نشر وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون للإمام/علي بن برهان الدين الحلبي، نشر دار المعرفة، ١٤٠٠هـ، بيروت.
- شرح كشف الشبهات ويليه شرح الأصول الستة للإمام/ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت١٤٢١هـ)، إعداد: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، نشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام/أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، نشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
- فصل الخطاب فى سيرة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) شخصيته وعصره د/علي محمد محمد الصلابي، طبعة دار القمة، دار الإيمان، (بدون).
- فقه السيرة النبوية د/محمد سعيد البوطي، طبعة دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- في ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب، نشر: دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة: السابعة عشر، ١٤١٢هـ.

- لسان العرب للإمام /محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، نشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- المجالسة وجواهر العلم للإمام/أبى بكر أحمد بن مروان بن محمد القاضي المالكي، نشر: دار ابن حزم، لبنان، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.
- مجموع الفتاوى للإمام/تقي الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، نشر دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ : ٢٠٠٥ م، تحقيق: أنور الباز عامر الجزار.
- مختار الصحاح للإمام/محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (ت٧٢١هـ)، نشر مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، بيروت، تحقيق: محمود خاطر.
- المخصص للإمام/أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل إبراهم جفال.
- مدخل إلى الدعوة الإسلامية د/ محمد أبوزيد الفقي، ط: مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا, الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- المدخل إلى علم الدعوة د/محمد أبو الفتوح البيانوني، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت ،١٩٩١م.
- المدخل إلى علوم القرآن الكريم للأستاذ/محمد فاروق النبهان، نشر: دار عالم القرآن، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للإمام/علي بن محمد الهروي القاري (ت١٠١٤هـ)، نشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل للإمام/ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د/عبد الله بن عبد المحسن التركي.
- مسند البزار للإمام/أبى بكر المعروف بالبزار (ت٢٩٢هـ)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م - ٢٠٠٩م، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي.
- المصباح المنير للإمام/ أحمد بن محمد بن علي الفيومي، نشر: المكتبة العصرية، دراسة وتحقيق/ يوسف الشيخ محمد.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ/محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي دمشق.
- المعجم الوسيط تأليف/إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، نشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
- معجم لغة الفقهاء اد/محمد رواس قلعه جي د/حامد صادق، طبعة دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- معجم مقاييس اللغة للإمام/ أبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)، نشر دار الجيل،١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، بيروت، لبنان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

- معرفة الصحابة للإمام/أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، نشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي.
- المعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم معانيها ودلالتها د/ناصر بن محمد عبد الماجد، مجلة الدراسات القرآنية، العدد (١٠) ١٤٣٣هـ، (بدون).
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام/أبى زكريا محيي الدين النووي (ت:٦٧٦هـ)، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- نيل الأوطار للإمام/ محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، نشر: دار الحديث، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، تحقيق: عصام الدين الصبابطي.
- الشبكة الالكترونية من خلال بعض الروابط التالية:

http://www.islamdoor.com/k/wehda.htm
http://www.ahla٣omlat.com/t١٥-top
http://www.islamdoor.com/k/٣٥٤.htm

فهرس الموضوعات

مسلسل	الموضوع	الصفحة
١	**المقدمة**	٣
٢	أسباب اختيار الموضوع	٧
٣	التعريف بمفردات البحث	٨
٤	تعريف الدعوة في الاصطلاح	١٣
٥	**المبحث الأول:** الثبات أمام العدو	١٦
٦	**المبحث الثاني:** ذكر الله (ﷻ)	٢٧
٧	**المبحث الثالث:** طاعة الله وطاعة رسوله الكريم (ﷺ)	٣٧
٨	**المبحث الرابع:** الاجتماع لا الاختلاف والتوحد لا التفرق	٥٨
٩	**المبحث الخامس:** معية الله مع الصابرين	٧٩
١٠	**الخاتمة**	٩٥
١١	**الفهارس والمراجع**	٩٨
١٢	**فهرس الموضوعات**	١٠٦